الأخلاق الإسلامية و أداب المهنة

د : عبد الله محمد نوري الديرشوي

المحاضرة التمهيدية

تعريف عام بمقرر الأخلاق الإسلامية وآداب المهنة

كما يظهر من العنوان فإن المقرر يتكون من شقين: أولهما: في الأخلاق عامة. والآخر: في أخلاق المهنة خاصة.

مقدمة عامة في أهمية مقرر الأخلاق الإسلامية وآداب المهنة: أ - أهمية الأخلاق مقرراً دراسياً.

ب - أهمية المهنة وضرورتها في الحياة.

ج - أهمية الآداب ومدى اهتمام الإسلام بها.

أهداف المقرر: نهدف من دراسة هذا المقرر تحقيق ما يلي:

١- الوقوف على تعريف الأخلاق في اصطلاح العلماء، وذكر أسسها وخصائصها في الإسلام.

٢- تحديد وسائل التربية الأخلاقية في الإسلام. ٣- الوقوف على أهمية المهنة وضرورتها في الحياة.

٤- معرفة أخلاق المهنة في الإسلام. ٥- الشعور بالمسؤولية الأخلاقية .

خطة تدريس المقرر: سيتم توزيع المنهج على أربع عشرة محاضرة هي:

-:تعريف الخلق وطبيعته وأقسامه ومكانته. -:أسس الأخلاق في الإسلام.

-: خصائص الأخلاق الإسلامية. -:وسائل اكتساب الأخلاق.

-:المسؤولية عن السلوك الأخلاقي. -:نماذج من أخلاق النبي الكريم صلى الله عليه وسلم.

-:نماذج من أخلاق النبي الكريم صلى الله عليه وسلم. ٨. تعريف أخلاق المهنة ومدى الحاجة إلى دراستها.

-: الأخلاق الجامعة للمهنة وخلق الطهارة المهنية. -: خلق الاستقامة المهنية.

-: خلق التعاون المهني. -:خلق الأمانة المهنية.

-: خلق المحبة المهنية. -: نماذج من مواثيق الشرف أو المهنة.

المحاضرة الأولى

تعريف الخُلُق، وطبيعته، ومكانته في الإسلام

أولاً- تعريف الخُلُق:

الخُلُق لغة: بضم الخاء واللام، الطبع والسجية. أي ما جُبِل عليه الإنسان من الطَّبع. وجمعه أخلاقٌ. وهو - أي الخُلُق – يمثل صورة الإنسان الباطنة، التي هي نفسه التي بين جنبيه وأوصافها ومعانيها المختصَّة بها. أو بتعبير آخر: الجانب المعنوي في شخصية الإنسان.

كما أن الخَلْق يمثل صورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها. أو بتعبير آخر: الجانب المادي في شخصية الإنسان.

واصطلاحاً: حالٌ للنفس راسخةٌ تصدر عنها الأفعال من خيرٍ أو شرٍ من غير حاجةٍ إلى فِكرٍ و رَوِيَّةٍ. وبهذا المعنى يكون وصفاً للنفس. فنقول: فلان خلقه عالٍ. أي أنه يتصف في نفسه بصفة تجعل الأفعال الصادرة عنه محمودة من غير تكلف. وكذلك حين نقول: فلان خلقه سيئ. أي أنه يتصف في نفسه بصفة تجعل الأفعال الصادرة عنه مذمومة من غير تكلف. وهذا المعنى هو المراد من قول الله سبحانه في مدح نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: {وإنك لعلى خُلُقٍ عظيم}.

وقد يطلق الخُلُق أحياناً على المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني على نحو يحقق الغاية من وجوده في هذا العالم وعلى أكمل وجه. وبهذا المعنى نقول: الصدق خُلُق، واحترام الكبير خُلُق، وبر الوالدين خلُق ... وهكذا. وهذا المعنى هو المراد من قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق".

شرح التعريف وتوضيحه:

التعريف الأخير –أعني المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك- واضح لا لبس فيه، فالصدق والسخاء والرحمة والعدل وحب الخير للناس جميعها أخلاق حميدة، وفضائل مسلَّمة، يسعى عقلاء الناس للتحلي بها، وتربية أبنائهم عليها.

وأما التعريف الأول فهو الذي يكتنفه بعض الغموض، ويحتاج إلى توضيح، فنقول:

يُقصد بـ (الحال) : الهيئة والصفة للنفس الإنسانية.

و (راسخة) : أي ثابتة في أعماق نفسه. وهو ما يعني أن هذه الأفعال تتكرر من صاحبها على نسق واحد؛ حتى تصبح عادة له. ومن ثمَّ كان مَنْ ينفق المال مرة أو مرتين أو ثلاث مرات على المحتاجين لا يوصف بخلق السخاء والجود، بل لا بد من تكرره منه مراراً؛ بحيث يصبح عادة له.

و (من غير حاجةٍ إلى فِكرٍ و رَوِيَّةٍ) : أي من غير من غير حاجة إلى تأمل واجتهاد وتكوين قناعة عقلية للقيام به. وكذلك من غير تكلُفٍ أو تصنعٍ أو مجاهدة نفس، بل بسهولة ويسر وبطريقة تلقائية.

يقول الإمام الغزالي رحمه الله: "الخَلْق والخُلُق عبارتان مستعملتان معاً، يقال: فلانٌ حسنُ الخُلُق والخَلْق. أي: حسن الباطن والظاهر. فيراد بالخَلْق الصورة الظاهرة، ويراد بالخُلُق الصورة الباطنة. وذلك لأن الإنسان مركبٌ من جسدٍ مدرك بالبصر، ومن روحٍ ونفسٍ مدركٍ بالبصيرة. ولكل واحد منهما هيئةٌ وصورةٌ: إما قبيحةٌ، وإما جميلةٌ. فالنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدراً من الجسد المدرك بالبصر، ولذلك عظم الله أمره بإضافته إليه، إذ قال تعالى: {إني خالقٌ بشراً من طين، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين} فنبه على أن الجسد منسوب إلى الطين، والروح إلى رب العالمين، والمراد بالروح والنفس في هذا المقام واحد".

ثانياً- موضوع علم الأخلاق:

يبحث علم الأخلاق في الأحكام القيمية المتعلقة بالأعمال التي توصف بالخير أو الشر، أو توصف بالحسن أو القبح، وهذا ما يميز الأخلاق عن الغرائز والدوافع؛ لأن الغرائز والدوافع هي الحاجات التي فطر الله الإنسان عليها كحاجته للأكل والشرب والنكاح والنوم، وهي أشياء لا تستوجب لصاحبها مدحًا ولا ذمًّا، ولا ثوابًا ولا عقابًا؛ فإن مُدح الإنسان أو ذُم على شيء من ذلك، كان المقصود ليس نفس الفعل، وإنما طريقة صاحبه في تلبية تلك الحاجة، أو إشباع تلك الرغبة. فمن يأكل لا يُمدح ولا يُذم على نفس فعل الأكل، وإنما يُمدح على طريقته في الأكل فإذا أكل مما يليه وبهدوءٍ، ومضغ الطعام جيدًا، وبدأ باسم الله، وانتهى بحمد الله، حُمِد على فعله هذا. وإذا أكل بشراهة، وأدخل اللقمة على اللقمة، وجالت يده في القصعة؛ ذُمَّ على فعله ذاك.

ثالثاً- أقسام الخلق:

- يمكن تقسيم الخلق إلى قسمين اثنين باعتبارين مختلفين:
- أولهما باعتبار الفطرة والاكتساب: وبهذا الاعتبار ينقسم الخلق إلى:
- أخلاق فطرية: جُبِلَ الإنسانُ عليها أي هي هبة ومنحة من الله تعالى، وليس للإنسان أي دور في اكتسابها. ومثال ذلك قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأشج عبد القيس المنذر بن عائذ وكان وافد عبد القيس وقائدهم ورئيسهم - وعبد القيس قبيلة- (إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم، والأناة) فقال: أشيءٌ جُبِلتُ عليه، أم شيءٌ حدث لي؟ فقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: (بل شيء جبلت عليه). فقال: الحمد لله الذي جبلني على ما يحبه الله ورسوله". قال النووي: الحلم هو العقل. والأناة هي التثبت وترك العجلة. وسبب قول النبي صلى الله عليه وسلم ذلك له ما جاء في حديث الوفد أنهم لما وصلوا إلى المدينة بادروا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأقام الأشج عند رحالهم فجمعها وعقل ناقته ولبس أحسن ثيابه ثم أقبل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقربه النبي صلى الله عليه وسلم وأجلسه إلى جانبه.
- أخلاق مكتسبة: يسعى الإنسان في تحصيلها بالتدريب والممارسة العملية، ومن خلال مجاهدته لنفسه. ومنه قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما في الصحيح: (العلم بالتعلم) وقوله: "وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ الله، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ الله، وَمَنْ يَصْبِرْ يُصَبِّرْهُ الله".

ثانيهما باعتبار القبول وعدمه شرعاً: وبهذا الاعتبار ينقسم الخلق إلى:

١ - خلق محمود: وهو الأدب والفضيلة، وتنتج عنه أقوال وأفعال جميلة عقلا وشرعا.

٢ - خلق مذموم: وهو سوء الأدب والرذيلة، وتنتج عنه أقوال وأفعال قبيحة عقلا وشرعا.

ولقد جاء النبي صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى فضائل الأخلاق، حتى تكاد تكون هي الغاية الرئيسة من بعثته صلى الله عليه وسلم ويقول في ذلك: "إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق" وفي حديث آخر قال أسامة بن شريك: كنا جلوسًا عند النبي صلى الله عليه وسلم كأنما على رؤوسنا الطير، ما يتكلم منا متكلم، إذ جاءه أناس فقالوا: من أحب عباد الله تعالى؟ قال: "أحسنهم خلقًا"

ويُعدُّ حسن الخلق من أكثر الوسائل وأفضلها إيصالا للمرء إلى الفوز بمحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم والظفر بقربه يوم القيامة. يقول عليه الصلاة والسلام: "إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحسنكم أخلاقًا".

رابعاً: مكانة الأخلاق في الإسلام

يقسم كثير من الباحثين المعاصرين ما جاء به الإسلام من تشريعات وأحكام إلى شعب أربعة هي: عقائد، وعبادات، ومعاملات، وأخلاق. وربما قسمها بعضهم إلى ثلاث شعب فدمجوا بين العبادات والمعاملات، فقالوا: عقيدة، وشريعة، وأخلاق. وهذا التقسيم إنما يصح بالنظر إلى الجهة الغالبة في تلك القضايا والمسائل التي تناولتها نصوص الشرع، وإلا فعند التأمل وإنعام النظر نجد أن هذه الشعب الثلاث أو الأربع لا تنفك عن بعضها، وأنها متداخلة متعاضدة كالبنيان يشد بعضها بعضاً. فالأخلاق التي يرد ذكرها في آخر الشعب لا تنفك عن العقيدة والعبادات والمعاملات، وهي في نفس درجاتها ومستوياتها من الأهمية والطلب. بل إنها تمثل جوهر رسالة الإسلام ولب شريعتها، بكل ما تحمله كلمة الأخلاق من عمق وشمول.

وبيان ذلك من وجوه :

- حث الإسلام على الفضائل وحذر من الرذائل في نصوص لا تحصى من القرآن والسنة، ووصل فيها إلى أعلى درجات الإلزام، ورتب عليها أعظم مراتب الجزاء، ثواباً وعقاباً، في الدنيا والآخرة. فالصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، والكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار. وامرأة دخلت النار في هرة حبستها لا هي أطعمتها، ولا هي دعتها تأكل من خشاش الأرض. وبغي دخلت الجنة في كلب سقته. والمرء يبلغ بحسن خلقه درجة الصائم لا يفطر، والقائم لا يفتر. ...

- بلغ من عناية الإسلام بالأخلاق أن الله سبحانه حين أثنى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم اختار الثناء عليه من جهة أخلاقه ليُعلمنا أنه لا أبلغ ولا أرفع من هذه الصفة. فقال تعالى:{وإنك لعلى خلق عظيم}.

- جعل الرسول صلى الله عليه وسلم الغاية والهدف من رسالته إتمام البناء الأخلاقي الذي بدأه من سبقه من الأنبياء والمرسلين، فقال فيما يرويه أبو هريرة رضي الله عنه: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق).

- في باب العقائد نجد أن الإسلام يضفي على التوحيد صبغة خُلُقية، فيعتبره من باب "العدل" وهو فضيلة خلقية، كما يعتبر الشرك من باب "الظلم" وهو رذيلة خلقية، فيقول سبحانه: {إن الشرك لظلم عظيم} وذاك لأنه وضعٌ للعبادة في غير موضعها، وتوجه بها إلى من لا يستحقها. بل اعتبر القرآن الكريم الكفر بكل أنواعه ظلما، فقال تعالى: {والكافرون هم الظالمون}.

- والعبادات الإسلامية الكبرى ذات أهداف أخلاقية جلية منصوص عليها في كتاب الله:

- فالصلاة وهي العبادة الأهم في حياة المسلم، لها وظيفة سامية في تكوين الوازع الذاتي، وتربية الضمير الديني على الابتعاد عن الرذائل. قال تعالى: {وأقم الصلاة، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر} وهي كذلك تعين المسلم على مواجهة متاعب الحياة. قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة}.

- والزكاة وهي العبادة التي تلي الصلاة في الأهمية، وسيلة لتطهير وتزكية النفس، وهما من الأهمية بمكان في عالم الأخلاق. قال تعالى:{خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها}.

- والصيام إنما يقصد به تدريب النفس على الكف عن شهواتها، وإدخال صاحبها في سلك المتقين، وهي جماع الأخلاق الإسلامية. قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون}

- والحج تدريب للمسلم على التطهر والتجرد والترفع عن زخارف الحياة، وضبط الجوارح. قال تعالى: {الحج أشهر معلومات، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج}.

- وفي مجال المال والاقتصاد كان للأخلاق حضورها سواءٌ في ميدان الإنتاج أم التداول أم التوزيع أم الاستهلاك.

- ففي مجال الإنتاج يجب أن تكون السلعة المنتجة نافعة مفيدة، وأما ما كان ضاراً بالناس أو مؤذياً لهم فلا يجوز إنتاجه مهما كان سيجلب لصاحبه من أرباحٍ ماديةٍ. قال تعالى: {يسألونك عن الخمر والميسر، قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما}.

- وفي مجال التبادل يحرم الإسلام الاحتكار والغش وكتمان العيب، وإنفاق السلعة بالحلف الكاذب، واستغلال حاجة الآخرين أو استغلال بساطتهم أو طيشهم لخداعهم ففي الحديث الصحيح: "لا يحتكر إلا خاطئ" أي آثم. وفيه أيضاً: "من غش فليس منا". وفيه: "الحلف الكاذب منفقة للسلعة ممحقة للبركة. والتملك، لا يجوز للمسلم أن يتملك ثروة من طريق خبيث، ولا يحل له أن يأخذ ما ليس له بحق لا بالعدوان ولا بالحيلة.كما لا يحل للمسلم الملك بطريق خبيث، لا يحل له تنمية ملكه بطريق خبيث كذلك.لهذا حرم الله الربا والميسر، وأكل أموال الناس بالباطل، والظلم بكل صوره، والضرر والضرار بكل ألوانه.

- وفى مجال التوزيع أمر بالعدل بين الأولاد في العطية من الوالدين، كما وضع نظاماً دقيقاً في توزيع الميراث، والصدقات المفروضة، والغنائم والفيء والخراج والجزية وعطايا بيت المال. فقال صلى الله عليه وسلم: (اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم)

- وفي مجال الاستهلاك والإنفاق أمر الإسلام بالاعتدال والتوسط، والابتعاد عن الترف، والتبذير والإسراف والتقتير. قال تعالى: {ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً}. وقال أيضاً: {وكلوا واشربوا ولا تسرفوا، إنه لا يحب المسرفين}. ومن هذا الباب تحريمه لاستعمال أواني الذهب والفضة مطلقاً، وكذا تحريمه لبس الذهب والحرير على الرجال.

- وفي مجال السياسة ربط الإسلام السياسة بالأخلاق، فرفض كل الأساليب القذرة للوصول إلى الغايات مهما كانت تلك الغايات نبيلة، ورفض مبدأ "الغاية تبرر الوسيلة" وجعله سياسته مبنية على الصدق والرحمة والعدل والإنصاف والمساواة بين الجميع في الحقوق والواجبات والعقوبات، وفرض احترام الاتفاقات، والوفاء fالعهود. قال تعالى: {وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء} وقال جل شأنه: {وبعهد الله أوفوا ..} وقال أيضاً {ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى}.

- وفي مجال الحرب لم تنفصل سياسة الإسلام عن الأخلاق، بل بقيت كما في السلم مبنية على العدل والرحمة والصدق والوفاء. قال تعالى: {وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين} ، وقال جل في علاه: {ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام، أن تعتدوا، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان، واتقوا الله إن الله شديد العقاب}. وجعل الغاية من الحرب إعلاء كلمة الله، والانتصار للحق والخير. قال تعالى: {الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت، فقاتلوا أولياء الشيطان} وقال جل جلاله: {وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا، إن الله لا يحب المعتدين}. وفي السنة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يوصي أصحابه إذا توجهوا للقتال بقوله" :اغزوا باسم الله، وفي سبيل الله، وقاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً) وكذلك كان الخلفاء الراشدون المهديون من بعده يوصون قوادهم: "ألا يقتلوا شيخا، ولا صبيا، ولا امرأة، وألا يقطعوا شجرا، ولا يهدموا بناءً".

- وهكذا فما من مجال من مجالات الحياة يعيشها المسلم بمعزل عن القيم الأخلاقية والضوابط السلوكية، وما هذا الذي ذكرناه إلا غيض من فيض.

آنتهى

المحاضرة الثانية

أسس الأخلاق في الإسلام

يقوم النظام الأخلاقي في الإسلام على أربعة أسس هي: الأساس الاعتقادي، والأساس الواقعي، والأساس العلمي، ومراعاة الطبيعة الإنسانية.

*

أولاً - الأساس الاعتقادي: يتمثل الأساس الاعتقادي للأخلاق الإسلامية في ثلاثة أركان هي:

الركن الأول: الإيمان بوجود الله تعالى الذي خلق الكون وخلق الإنسان وخلق الموت والحياة وهو بكل شيء من الماضي والحاضر والمستقبل عليم، حتى إنه ليعلم ما يدور في خلجات الأنفس من خير أو شر كما قال تعالى: [وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ] {ق:١٦}

الركن الثاني: الإيمان بأن الله عز وجل منذ أن خلق الإنسان فوق هذه الأرض عرَّفه بذاته العلية، وعرَّفه بطريق الخير والشر، وطريق الحق والباطل، من خلال رسالاتٍ أوحى بها إلى من اختارهم من أنبيائه ورسله، قال تعالى: [أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ، وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ، وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ] {البلد:٨-١٠} وقال سبحانه: [وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا] {الشمس:٨}.

كما أن الله سبحانه خلق في الإنسان القوة والقدرة على إدراك تلك الحقائق، ونصب الدلائل الكثيرة على ذلك في هذه الطبيعة، يدركها من تأمل فيها، وبحث عنها، قال تعالى: [سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ] {فصِّلت:٥٣}.

ومن ثَمَّ كلفهم الله سبحانه باتباع الحق والخير، واجتناب الشر والباطل، وبين لهم واجباتهم تجاه خالقهم، وتجاه المخلوقات الأخرى، كما بين لهم المحرمات التي يجب عليهم اجتنابها.

الركن الثالث: الإيمان بوجود الحياة بعد الموت، وهذه الحياة إما نعيم وإما جحيم؛ فالأولى يكافأ بها من اتبع الحق، وفعل الخير، واجتنب الشر وما حرمه الله تعالى عليه، والثانية يجازى بها من اتبع الباطل وارتكب ما حرم الله.

وهذه وتلك تكون بعد حساب دقيق بين يدي الخالق عز وجل يوم القيامة، كما قال سبحانه: {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي المَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ} {يس:١٢}

وقال جل جلاله: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} {الزَّلزلة:٧-٨}.

إذن: فهذه الحياة ميدان عمل واختبار للإنسان لمن يريد الخير، ولمن يريد الشر؛ قال تعالى: {الَّذِي خَلَقَ المَوْتَ وَالحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} {الملك:٢}، والحياة الأخرى للحساب والجزاء؛ قال تعالى: {وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} {الأنبياء:٤٧}.

أهمية الأساس الاعتقادي:

- هذا الأساس الاعتقادي بهذا المفهوم –المعتمد على الإيمان بالله وبالرسالات السماوية وبالحياة بعد الموت والحساب- في غاية الأهمية في الاتجاه الأخلاقي في ديننا، وهو السند الذي يُعتمدُ عليه في إقامة النظام الخلقي الإسلامي، وفي عملية الالتزام به.

وبدون هذا الأساس تفقد الأخلاق قدسيتها، وتأثيرها في الإنسان، بل يستحيل أن تطبق تطبيقاً عملياً دقيقاً في السر والعلن، من غير أن يكون لهذا الأساس في قلوب البشر مكاناً راسخاً، ومن غير أن يؤمنوا به إيماناً صادقاً.

وليس هذا أساسٌ للسلوك الأخلاقي فحسب، بل كذلك للحياة؛ إذ لا معنى للحياة –في الحقيقة- دون وجود هذا الأساس ودون الاعتماد عليه.

- هذا الأساس الاعتقادي بهذا المفهوم –المعتمد على الإيمان بالله وبالرسالات السماوية وبالحياة بعد الموت والحساب- في غاية الأهمية في الاتجاه الأخلاقي في ديننا، وهو السند الذي يُعتمدُ عليه في إقامة النظام الخلقي الإسلامي، وفي عملية الالتزام به.

وبدون هذا الأساس تفقد الأخلاق قدسيتها، وتأثيرها في الإنسان، بل يستحيل أن تطبق تطبيقاً عملياً دقيقاً في السر والعلن، من غير أن يكون لهذا الأساس في قلوب البشر مكاناً راسخاً، ومن غير أن يؤمنوا به إيماناً صادقاً.

وليس هذا أساسٌ للسلوك الأخلاقي فحسب، بل كذلك للحياة؛ إذ لا معنى للحياة –في الحقيقة- دون وجود هذا الأساس ودون الاعتماد عليه.

- إن اعتماد الأخلاق على أساس من العقيدة يضفي عليها طابعاً مميزاً من القداسة، وتدفع بالإنسان إلى فعل الخير، والابتعاد عن الشر، وتجعله صاحب ضمير حي، وقد اعترف بهذا الدكتور ألكسيس كاريل حيث يقول: "الفكرة المجردة لا تصبح عاملاً فعالاً إلا إذا تضمنت عنصراً دينياً، وهذا هو السبب في أن الأخلاق الدينية أقوى من الأخلاق المدنية إلى حد تستحيل معه المقارنة، ولذلك لا يتحمس الإنسان في الخضوع لقواعد السلوك القائم على المنطق إلا إذا نظر إلى قوانين الحياة على أنها أوامر منزلة من الذات الإلهية".

ثانياً - الأساس الواقعي :

إذا كان الإسلام قد دعا إلى المثالية والسمو الروحي، وذم الذين أخلدوا إلى الأرض وشهواتها، فإن دعوته إلى المثالية كانت واقعية، وكانت وسطاً بين نظرتين متطرفتين هما:

- أولهما: دعوات روحية تدعو الإنسان إلى محاربة الطبيعة، وعدم الاستسلام لها، مهما جابهته ضغوطات الحياة ومهما كانت شدتها؛ واعتبروا سعادة الإنسان، وسموه الروحي وخلاصه من آلام الحياة إنما تتم بمحاربة الطبيعة، والتسامي عليها.

ثانيهما: دعوات للطبيعيين الذين أخلدوا إلى الأرض، وقدموا الطاعة لدواعي هذا الركون والخضوع للأرض ومتطلباتها؛ واعتبروا سعادة الإنسان إنما تتم باستجابته لمتطلبات الطبيعة.

فجاء موقف الإسلام نحو الطبيعة واقعياً وسطاً معتدلاً بين هاتين النظرتين، وقد تجلى ذلك في:

١. دعوته إلى الاستعلاء على الطبيعة وعدم الاستسلام لها؛ وذلك بدعوته الإنسان إلى أن يكون سيداً على الطبيعة، فيسخر مواردها في عمران الأرض، ونفع العباد، كما قال تعالى: {هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} {هود:٦١}، وأن يكون كذلك سيداً على نفسه: فيضبط ميوله ورغباته ويوجهها وفقاً للمثل العليا التي جاء بها الإسلام.

٢. دعوته إلى التأقلم والانسجام مع الطبيعة ومع الواقع، وعدم التصادم معها؛ وذلك عن طريق اتخاذ قواعد للسلوك تنسجم تمام الانسجام مع القوانين الأساسية للحياة البشرية، وهو ما سنتناوله في الفقرة التالية.

ثالثاً: الأساس العلمي:

ونعني به القوانين الأساسية للحياة البشرية وهذه القوانين هي: قانون المحافظة على الحياة. وقانون تكاثر النوع الإنساني. وقانون الارتقاء العقلي والروحي.

وفيما يلي نتناول هذه القوانين بشيء من التفصيل.

القانون الأول - قانون المحافظة على الحياة:

- اعتبر الإسلام كل سلوك من شأنه أن يحافظ على الحياة وينميها سلوكاً أخلاقياً، وكل سلوك يضاد الحياة أو يعوقها بصورة من الصور يعد سلوكاً غير أخلاقي.
- ومن هنا كان القتل حراماً أخلاقياً، وكذا تهديد الآخرين وإخافتهم، والتحاسد والتباغض والتدابر حراماً أخلاقياً.
- وكان من الواجب احترام الناس، والمحافظة على أرواحهم وأعراضهم ودمائهم، والسعي لنفعهم ما أمكن حفاظاً على الحياة.

القانون الثاني - تكاثر النوع الإنساني:

- اعتبر الإسلام كل سلوك من شأنه أن يؤدي إلى إبقاء النوع وتحسينه سلوكاً أخلاقياً راقياً، فشرع الزواج وحث عليه، ونهى عن التبتل أو الرهبانية كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم: أما أنا، فإني أصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم، فقال: "أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني".
- كما حث على حسن اختيار الزوجة، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (تخيروا لنطفكم، وانكحوا الأكفاء، وأنكحوا إليهم).
- وحث الآباء على تزويج بناتهم من أناس صالحين، فقال صلى الله عليه وسلم: (إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلاَّ تفعلوا تكن فتنةٌ في الأرض وفساد).
- ثم إن الإسلام حرم كل سلوك من شأنه أن يعوق استمرار التناسل؛ لأنه يعد منعاً لاستمرار النوع، ومن ثمَّ فقد حرم الإسلام الخِصاء، كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال: "كنا نغزو مع النبي صلى الله عليه وسلم ليس لنا نساء، فقلنا: يا رسول الله، ألا نستخصي؟ فنهانا عن ذلك".
- فالإسلام يعد الخروج على القوانين الطبيعية والأخلاقية تعدياً وخروجاً عن جادة الحياة المستقيمة.

القانون الثالث - الارتقاء العقلي والروحي:

- اعتبر الإسلام كل سلوك من شأنه أن يؤدي إلى السعادة والإقبال على الحياة بمحبة وانشراح وينمي العقل ويحافظ عليه سلوكاً أخلاقياً راقياً، وكل سلوك يضاد ذلك كأن يجعل الإنسان يعيش في عزلة من الناس متشائماً قلقاً، أو يضر بعقله ويجعله مريضاً أو متخلفاً مستسلماً للجهل والخرافات سلوكاً غير أخلاقي.
- ومن ثم فقد حث على العلم وصلة الرحم ومحبة الآخرين والرحمة بهم، والرضا بقضاء الله وقدره، كما في الحديث: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"، وفي حديث آخر: "عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له".
- كما حرم الانتحار، أو تعاطي المسكرات أو المخدرات، أو ما من شأنه أن يضر بصحة الإنسان البدنية أو بعقله، قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا} {البقرة:٢١٩}. وقال سبحانه: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ، إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ فِي الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ] {المائدة:٩٠-٩١}. ومثلها من النصوص كثير جداً.

رابعاً – مراعاة الطبيعة الإنسانية:

- **الإسلام ينظر إلى الإنسان على أنه روح، وجسد، وعقل، وقلب، ومشاعر، وعواطف. وأن هناك صراعاً بين طبيعة الإنسان وتكوينه المادي الذي يميل إلى الأرض والتراب الذي خلق منه، فيستجيب للأهواء والشهوات وينساق لها، وروحه العلوية التي هي من نفخ الإله، وتدعوه إلى السمو والرقي والمثالية.**
- **والمطلوب هو التنسيق بين هاتين الطبيعتين في الإنسان، وتوجيهه إلى السلوك الذي يليق به بصفته أشرف مخلوق على ظهر الأرض، وصاحب رسالة خُلِق من أجلها في هذه الدنيا.**
- **والمرجع في هذا التنسيق هو الشرع الذي جاء به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من رب العالمين تبارك وتعالى.**
- **ومن هنا كان هذا الأساس على جانب كبير من الأهمية في الدراسات الأخلاقية، وذلك لما بين سلوك الإنسان، وطبيعته التي جبله الله عليها من صلة وثيقة، ولأن نجاح أي نظام أخلاقي يتوقف على مدى انسجامه مع واقع هذه الطبيعة.**

أنتهى

المحاضرة الثالثة

خصائص الأخلاق الإسلامية

تمتاز الأخلاق الإسلامية بجملة من الخصائص تميزها عن غيرها من الأنظمة الأخلاقية، وتعطيها وجودها وطابعها المتفرد والمستقل، وهي:

*

أولاً- الانبثاق عن عقيدة الإسلام:

الأخلاق الإسلامية مرتبطة بالعقيدة ارتباطاً قوياً وعميقاً؛ بحيث يستحيل الفصل بينهما.

وما أكثر النصوص التي تربط بين الإيمان وحسن الخُلُق؛ حتى إنها لتجعل الإيمان، هو نفسه حسن الخُلُق، كيف لا؛ وحسن الخلق يقتضي شُكر المنْعِم (الإله)، والاعتراف بفضله، والثناء عليه، والوقوف عند حدوده بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه.

وأي عقوق أعظم من أن يتمرد الإنسان على خالقه ومولاه، ويتنكر لجميله، ويخالف أمره ونهيه، كما هو الشأن في الكفار والمنافقين.

يقول الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: "حسن الخلق هو الإيمان، وسوء الخلق هو النفاق، وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمنين والمنافقين في كتابه، وهي بجملتها ثمرة حُسْن الخلق، وسوء الخلق، فلنورد جملة من ذلك لتعلم آية حسن الخلق. قال الله تعالى: [قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ...] {المؤمنون:١- ٥}، وقال تعالى: [وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا...]{الفرقان:٦٣}.. من أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات، فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق، وفقد جميعها علامة سوء الخلق، ووجود بعضها دون بعض يدل على البعض دون البعض، فليشتغل بتحصيل ما فقده، وحفظ ما وجده. وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمن بصفات كثيرة، وأشار بجميعها إلى محاسن الأخلاق، فقال صلى الله عليه وسلم: (من كان يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فلا يُؤْذِ جَارَهُ وَمَنْ كان يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ وَمَنْ كان يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أو لِيَصْمُتْ). وقال: (لَا يُؤْمِنُ أحدكم حتى يُحِبَّ لِأَخِيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ). وقال: (أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَاناً أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً).

ويقول الداعية المعاصر الشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى: "الإيمان قوة عاصمة عن الدنايا، دافعة إلى المكرمات ومن ثمَّ فإن الله عندما يدعو عباده إلى خير أو يُنفرهم من شر، يجعل ذلك مقتضى الإيمان المستقر في قلوبهم. وما أكثر ما يقول في كتابه: " يا أيها الذين آمنوا " ثم يذكر بعدُ ما يُكلفهم به، مثل قوله تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ] {التوبة:١١٩} [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا] {الأحزاب:٧٠} .. وقد وضح صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم أن الإيمان القوي، يلد الخلق القوي حتماً، وأن انهيار الأخلاق مرده إلى ضعف الإيمان، أو فقدانه، بحسب تفاقم الشر أو تفاهته.. فالرجل

الصفيق الوجه، المعوج السلوك الذي يقترف الرذائل غير آبه لأحد، يقول رسول الإسلام في وصف حاله: "الحياء والإيمان قرناء جميعاً فإذا رفع أحدهما رفع الآخر"!. والرجل الذي ينكب جيرانه ويرميهم بالسوء، يحكم الدين عليه حكما قاسياً فيقول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم : (والله لَا يُؤْمِنُ والله لَا يُؤْمِنُ والله لَا يُؤْمِنُ قِيلَ وَمَنْ يا رَسُولَ اللَّهِ قال الذي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بوائقه). وتجد الرسول صلى الله عليه وسلم عندما يعلم أتباعه الإعراض عن اللغو، ومجانبة الثرثرة والهذر يقول: (وَمَنْ كان يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أو لِيَصْمُتْ). وهكذا يمضى في غرس الفضائل وتعهدها حتى تؤتى ثمارها، معتمداً على صدق الإيمان وكماله..".

إذاً فالدين هو منبت الأخلاق، وهو مصدر الرقابة عليها، وهو المقوّم لها إذا انحرفت، وهما متلازمان لإقامة كل مدنية فاضلة خيرة في مصلحة الإنسان.

ثانياً- الشمول:

تتنوع الأخلاق الإسلامية وتشمل جميع المجالات، ومن هذه المجالات:

١- خلق مع الله ومع النبي عليه السلام: وردت نصوص كثيرة من الكتاب والسنة تبين خُلُق المسلم مع الله ومع نبيه يتمثل في السمع والطاعة، من ذلك: قوله تعالى: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا} {النور:٥١} . وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ} {الحجرات:١}، وقوله صلى الله عليه وسلم (الدين النصيحة. قلنا لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم).

٢- خلق مع ولي الأمر: ويتمثل في طاعة أوامره في المعروف، وبذل النصح له. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ} {النساء:٥٩} . ويقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: "الدِّينُ النَّصِيحَةُ" قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: "لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ".

٣- خلق مع عامة المسلمين: النصوص في بيان ما ينبغي أن يتحلى به المسلم مع المسلم، من الأخوة والإيثار والنصح والمحبة والتعاون والنصرة والولاية أكثر من أن تحصى. من ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: "المسلم أخ المسلم؛ لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام؛ دمه وماله وعرضه".

٤- خلق مع غير المسلم: وردت نصوص كثيرة تبين ما ينبغي أن يتحلى به المسلم مع غير المسلم، من العدل والإحسان وحسن المعاملة، من ذلك قوله تعالى: {لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} {الممتحنة:٨} . وقول النبي صلى الله عليه وسلم: "من آذى ذمياً فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته". والذمي من رضي بالعيش مع المسلمين مسالماً في كنف دولة الإسلام، ولم يجاهر بعدائه للمسلمين أو لدينهم.

٥- خلق مع الكبير والصغير: يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا". وقوله: "ليس منا" يدل على عِظم وخطورة هذه الجريمة الأخلاقية. فهو ليس على أخلاق المسلمين، ولا على نهجهم ومسلكهم في الحياة مادام لا يوقر من هو أكبر منه، ولا يعطف على من هو أصغر منه. وإذا لم يكن على أخلاق المسلمين، فليتنبه لنفسه، وليعرف الطريق الذي اختاره لنفسه، وما يحفه من المخاطر.

وهناك الخلق مع الوالدين والأبناء والبنات والزوج والقرابة، ومع الضيف والمعلم والصديق، ومع البهائم والجماد... وهكذا نجد أن مجالاته شاملة لميادين الحياة كلها.

يقول الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى: "قد تكون لكل دين شعائر خاصة به، تعتبر سمات مميزة له. ولا شك أن في الإسلام طاعات معينة، ألزم بها أتباعه، وتعتبر فيما بينهم أموراً مقررة لا صلة لغيرهم بها، غير أن التعاليم الخُلُقية ليست من هذا القبيل؛ فالمسلم مكلف أن يلقى أهل الأرض قاطبة بفضائل لا ترقى إليها شبهة، فالصدق واجب على المسلم مع المسلم وغيره، والسماحة والوفاء والمروءة والتعاون والكرم.. الخ. وقد أمر القرآن الكريم ألا نتورط مع اليهود أو النصارى في مجادلات تهيج الخصومات ولا تجدي الأديان شيئاً. قال الله تعالى: [وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ]{العنكبوت:٤٦}. واستغرب من أتباع موسى وعيسى أن يشتبكوا مع المسلمين في منازعات من هذا النوع الحاد:[قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ] {البقرة:١٣٩}. وحدث أن يهودياً كان له دَيْنٌ على النبي، فجاء يتقاضاه قائلاً : إنكم يا بني عبد المطلب قوم مُطل!! فرأى عمر بن الخطاب أن يُؤدب هذا المتطاول على مقام الرسول، وهَمَّ بسيفه يبغي قتله. لكن الرسول صلى الله عليه وسلم أسكت عمر قائلاً: (أنا وهو أولى منك بغير هذا، تأمره بحُسن التقاضي، وتأمرني بحُسن الأداء)، وقد أمر الإسلام بالعدل ولو مع فاجر أو كافر. قال عليه الصلاة والسلام: "دعوة المظلوم مُستجابة، وإن كان فاجراً ففجوره على نفسه) ... وبهذه النصوص، مَنع الإسلام أبناءه أن يقترفوا أية إساءة نحو مخالفيهم في الدين. ومن آيات حسن الخلق مع أهل الأديان الأخرى ما ورد عن ابن عمر: أنه ذبحت له شاة في أهله ؟ فلما جاء قال: أهديتم لجارنا اليهودي؟ أهديتم لجارنا اليهودي؟. سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه).. أما من الناحية العامة، فقد قرر الإسلام أن بقاء الأمم وازدهار حضارتها، واستدامة منعتها، إنما يُكفل لها إذا ضمنت حياة الأخلاق فيها، فإذا سقطت الخلق سقطت الدولة معه.

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ويؤكد هذه الحقيقة حديث الرسول لقومه وعشيرته، فقد رشحتهم مكانتهم في جزيرة العرب لسيادتها، وتولي مقاليد الحكم بها. ولكن النبي أفهمهم ألا دوام لملكهم إلا بالخُلُق وحده. فعن أنس بن مالك قال: "كنا في بيت فيه نفر من المهاجرين والأنصار؟ فأقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجعل كل رجل يوسع رجاء أن يجلس إلى جنبه.. ثم قام إلى الباب فأخذ بعضادتيه، فقال: (الأُمَرَاءُ من قُرَيْشٍ ثَلاَثاً ما فَعَلُوا ثَلاَثاً ما حَكَمُوا فَعَدَلُوا وَاسْتُرْحِمُوا فَرَحِمُوا وَعَاهَدُوا فَوَفَوْا فَمَنْ لم يَفْعَلْ ذلك منهم فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ). هذا الحديث حاسم في أنه لا مكانة لأمة ولا لدولة ولا لأسرة إلا بمقدار ما تمثل في العالم من صفات عالية، وما تحقق من أهداف كريمة. فلو أن حكماً حمل طابع الإسلام والقرآن، ثم نظر الناس إليه فوجدوه لا يعدل في قضية، ولا يرحم في حاجة، ولا يوفي في معاهدة، فهو باسم الإسلام والقرآن قد انسلخ عن مقوماته الفاضلة، وأصبح أهلاً لأن يلعن في فجاج الأرض وآفاق السماء. ومن أقوال الإمام ابن تيمية: "إن الله يقيم الدولة العادلة، وإن كانت كافرة، ولا يقيم الدولة الظالمة، وإن كانت مسلمة" . إن الخلق في منابع الإسلام الأولى من كتاب وسنة هو الدين كله، وهو الدنيا كلها، فإن نقصت أمة حظاً من رفعة في صلتها بالله، أو في مكانتها بين الناس، فبقدر نقصان فضائلها وانهزام خلقها".

ثالثاً- الثبات:

يقصد بالثبات أن الفضائل الأساسية للمجتمع من صدق ووفاء وأمانة وعفة وإيثار مرتبطة بنظام الشريعة العامة، وهي أمور لا يستغني عنها مجتمع كريم، مهما تطورت الحياة، وتقدم العلم بل تظل قيماً فاضلة ثابتة.

إن الأخلاق في الإسلام لا تتغير ولا تتطور تبعا للظروف الاجتماعية والأحوال الاقتصادية، بل هي حواجز متينة ضد الفوضى والظلم والشر، كما قال الله تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} {البقرة:٢٢٩}.

ويمكن إيجاز العوامل التي جعلت أخلاق الإسلام ثابتة في سببين، هما:

الأول: أنها مرتبطة بالفطرة البشرية: والفطرة تتصف بالثبات، ويرثها الأحفاد عن الآباء والأجداد، كما في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كل مولود يولد على الفطرة) فالخُلق فِطرة.

الثاني: كونها نابعة من الدين: والدين يصلح لجميع الناس، ويهدف إلى الخير المطلق، لأنه من عند الله سبحانه وتعالى، وقد راعى فيه الخير العام، فكذلك الأخلاق الإسلامية. قال تعالى: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ} {الملك:١٤}.

ويترتب على خاصية الثبات هذه أن الأخلاق مختلفة عن التقاليد؛ لأن التقاليد تتغير بين الفينة والأخرى، بتغير مسوغات وجودها، وليس كذلك الأخلاق، لأنها تقوم على أسس ثابتة كالحق والعدل والخير.

كما أن الثبات في الأخلاق من شأنه أن يبعث الطمأنينة في حياة الفرد، وفي حياة المجتمع، بخلاف من ينظر إلى الأخلاق على أنها تتطور وتتبدل بتبدل الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، فإن من شأنها أن تجعل الإنسان يعيش من غير قيم عليا، وفي اضطراب وقلق.

رابعاً- الجمع بين الواقعية والمثالية:

فأما كون الأخلاق في الإسلام واقعية فتعني أنها عملية وقابلة للتطبيق، ولا يستعصي على أحد من الناس تطبيقها وتجسيدها في حياته.

وأما كونها في الوقت ذاته مثاليةً أيضاً فتعني أن في الناس من تتوق نفسه إلى معالي الأمور، ولا يرضى لنفسه بأن يكون كسائر الناس، ولا يشبع ذلك نَهَمه ورغبته في التسامي بخلقه، ورغبته في التحلي بالفضائل، ففسح الشرع له ذلك المجال.

فالإسلام راعى بتشريعه استعدادات هذا وذاك من الناس، ولم يحملهم على ما لا يطيقون، وما يمكن أن تمله نفوسهم وتتقاصر عنه، فشرع العدل وذلك بأن يصل كل ذي حق إلى حقه، ولكن دعاه في الوقت ذاته إلى الإحسان وهي مرتبة فوق العدل، فيها التضحية والصفح والتجاوز، قال تعالى في تقرير قاعدة العدل: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاءَ بِالقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ] {المائدة:٨}.

وقال في تقرير المثالية والإحسان: [وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ] {الشُّورى:٤٠} [وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ] {النحل:١٢٦}.

والأخلاق الإسلامية في هذا يختلف عن الدعوات المثالية التي نادى بها بعض الفلاسفة من أمثال أفلاطون في كتابه الجمهورية الفاضلة، وكذلك النصارى في الوصايا التي نسبوها إلى نبي الله عيسى عليه السلام، ويستعصي على معظم الناس تطبيقها، ولا تستقيم معها حياتهم، وسرعان ما يملونها، وتسأم نفوسهم من فعله لما فيها من تكلف شديد. قال عليه الصلاة والسلام: (عَلَيْكُمْ مَا تُطِيقُونَ مِنْ الْأَعْمَالِ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا). وفي معناه قوله تعالى: [فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ] {التغابن:١٦}.

خامساً- الوسطية:

وتعني أن الأخلاق الإسلامية وسطٌ بين طرفين متضادين. وتتجلى هذه الوسطية والاعتدال في جوانب الدين كله:

ففي نظرة الإسلام إلى تكوين الإنسان كان وسطاً بين:

غلاة المثاليين الذين يعتبرون الإنسان روحاً علوية محبوسةً في الجسد ويجب عليه أن يتحرر منه.

غلاة الواقعيين الذين يعتبرون الإنسان جسداً فقط ويتنكرون للروح ومتطلباته.

فجاء الإسلام وقرر أن الإنسان مخلوق مركب من عقل وشهوة، وفيه استعداد للتقوى والفجور، وقد بين الله له طريق الخير وطريق الشر بوساطة أنبيائه ورسله، ثم ترك له حرية الاختيار، فقال تعالى: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا} (٧-١٠) سورة الشمس.

وفي نظرة الإسلام إلى الحياة كان وسطاً بين طرفين متقابلين هما:

من يرى أن الحياة هي هذه الدنيا التي نعيشها فقط.

وأولئك الذين يتنكرون لهذه الحياة الدنيوية ومتعها، ويرون أن السعي يجب أن يكون للآخرة فقط.

فجاء الإسلام ليقرر الانسجام والتوافق بين الحياتين، وأن الدنيا مزرعة للآخرة، ويجب على الإنسان أن يعمل لها ويسعى في عمارتها لأنها تمثل جزءاً من المهمة التي خلق الله عزوجل البشر من أجلها. قال تعالى: {هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا } (٦١) سورة هود، أي طلب منكم عمارتها، وقال أيضاً: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ } (٣٢) سورة الأعراف.

وفي دعوته إلى التحلي بالفضائل الخلقية كان وسطاً لا يقبل الزيادة ولا النقصان، فعلى سبيل المثال لا الحصر، حث على:

١- الحكمة، واعتبرها فضيلة، قال تعالى: [يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا] {البقرة:٢٦٩} ولكنها تأتي بين رذيلتين هما: الخِبُّ والبَلَه. والخب: إفراطٌ وزيادة من جهة الاتصاف بالمكر والحيلة وسوء الظن. والبله: تفريط ونقصان عن الاعتدال، وسذاجة وسفه.

٢- السخاء، واعتبره خلقاً كريماً، لكنه بين أنه يأتي بين رذيلتين، هما: الإسراف والتقتير، قال تعالى: [وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا] {الإسراء:٢٩} وقال: [وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا] {الفرقان:٦٧}.

٣- الشجاعة، وهي وسطٌ بين رذيلتي التهور والجبن. فالتهور، زيادة عن الاعتدال، ويقدم بها الإنسان على الأمور المحظورة، التي يجب في العقل الإحجام عنها، قال تعالى: [وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ] {البقرة:١٩٥} . والجبن، نقصان عن الاعتدال، قال تعالى في وصف المنافقين: [رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ] {التوبة:٨٧}.

٤- العفة، وهي وسط بين رذيلتي الشره والخمود. فالشره هو إفراط الشهوة والمبالغة في اللذات. والخمود هو قصور الشهوة عن الاندفاع إلى ما يقتضي العقل نيله وتحصيله.

٥- الحياء، وهو وسط بين رذيلتي الوقاحة وصفاقة الوجه من جهة، والخور والمهانة من جهة أخرى.

٦- التواضع، وهو وسط بين رذيلتي الكِبْر من جهة، والذلة والحقارة من جهة أخرى.

أنتهى

المحاضرة الرابعة

وسائل اكتساب الأخلاق

*

المقدمة : ذكرنا فيما تقدم أن هناك أخلاقًا فطرية؛ بمعنى أن بعض الناس تشمله العناية الإلهية فيولد سليم الفطرة، كامل العقل، حسن الخُلق، عالِماً مؤدَّباً بغير معلِّمٍ أو مؤدِّبٍ، كما هو الحال في الأنبياء والرسل الكرام عليهم السلام الذين اصطفاهم الله واختارهم، وجعلهم بفضله قدوات صالحة تمثل قمة الكمال البشري.

وهناك من يمُنُّ الله عليه ببعض تلك الصفات الخُلقية الحميدة، كما في حديث أشج عبد القيس حين أثنى عليه النبي صلى الله عليه وسلم وقال: "إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله، الحلم والأناة".

وحين سأل النبي أهما من كسبه أم جبله الله عليهما؟ قال له النبي صلى الله عليه وسلم: "بل الله جبلك عليهما". فإذا ما استثنينا هذه الحالات، فإن الصفات الخلقية الحميدة تحتاج إلى وسائل لاكتسابها والاتصاف بها. ومن أهم هذه الوسائل:

أولاً- التدريب العملي :

وذلك من خلال مجاهدة النفس، وحملها على الأعمال التي يقتضيها الخُلق المطلوب.

فمن أراد مثلاً أن يُحَصِّلَ لنفسه خُلُق الجود؛ فطريقه أن يتكلف تعاطي فعل الجود، وهو بذل المال، فلا يزال يطالب نفسه ببذل المال، ويواظب عليه تكلفاً، مجاهداً نفسه فيه حتى يصبح ذلك خلقاً له، وطبعاً فيه، فيتيسر عليه، ويصير به جواداً.

وكذا من أراد أن يُحَصِّلَ لنفسه خُلُق التواضع وقد غلب عليه الكِبْر؛ فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدة مديدة، وهو فيها يجاهد نفسه، ويتكلف إلى أن يصبح ذلك خلقاً له وطبعاً فيه؛ فيتيسر عليه، ويصير به متواضعاً.

وفي بيان هذا المعنى ورد في الحديث الشريف: (من يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله ....)

وفي هذا المعنى أيضاً قول النبي صلى الله عليه وسلم: (وجعلت قرة عيني في الصلاة)، أي أنه صلوات الله عليه وسلامه كان يشعر بغاية الراحة واللذة عند دخوله في المناجاة مع ربه في صلاته، وكان هذا خلقاً له.

وهذا الشعور بلذة الطاعة، وكره المعصية يجب أن يكون مستمراً على الدوام على مدى العمر.

ويلاحظ أن الفضيلة تكون أرسخ وأكمل، كلما كان العمر أطول، ومن هنا كان جواب النبي صلى الله عليه وسلم لما سئل : أي الناس خير؟ قال: "من طال عمره، وحسن عمله".

وهذا ما جعل الأنبياء والصالحين من عباد الله يرغبون في طول العمر؛ إذ الدنيا مزرعة الآخرة، وكلما كانت العبادات أكثر بطول العمر، كان الثواب أجزل، والنفس أزكى وأطهر، والأخلاق أقوى وأرسخ.

ثانياً- الجليس الصالح والبيئة الصالحة :

وذلك بمشاهدة أرباب الفعال الجميلة ومصاحبتهم، وهم قرناء الخير وإخوان الصلاح، إذ الطبع يسرق من الطبع الشرَّ والخيرَ جميعاً. قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً). رواه البخاري ومسلم. قال النووي: "في الحديث تمثيله صلى الله عليه وسلم الجليس الصالح بحامل المسك، والجليس السوء بنافخ الكير، وفيه فضيلة مجالسة الصالحين وأهل الخير والمروءة ومكارم الأخلاق والورع والعلم والأدب، والنهي عن مجالسة أهل الشر وأهل البدع ومن يغتاب الناس أو يكثر فُجْرُه وبطالته ونحو ذلك من الأنواع المذمومة".

ويقول الشيخ ناصر السعدي رحمه الله تعليقاً على هذا الحديث الشريف: "اشتمل هذا الحديث على الحث على اختيار الأصحاب الصالحين، والتحذير من ضدهم، ومثل النبي صلى الله عليه وسلم بهذين المثالين، مبيناً أن الجليس الصالح: جميع أحوالك معه، وأنت في مغنم وخير، كحامل المسك الذي تنتفع بما معه من المسك: إما بهبة، أو بعوض. وأقل ذلك: مدة جلوسك معه، وأنت قرير النفس برائحة المسك فالخير الذي يصيبه العبد من جليسه الصالح أبلغ وأفضل من المسك الأذفر، فإنه إما أن يعلمك ما ينفعك في دينك ودنياك، أو يهدي لك نصيحة، أو يحذرك من الإقامة على ما يضرك. فيحثك على طاعة الله، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، ويبصرك بعيوب نفسك، ويدعوك إلى مكارم الأخلاق ومحاسنها بقوله وفعله وحاله. فإن الإنسان مجبول على الاقتداء بصاحبه وجليسه، والطباع والأرواح جنود مجندة، يقود بعضها بعضاً إلى الخير، أو إلى ضده.

وأما مصاحبة الأشرار: فإنها بضد جميع ما ذكرنا، وهم مضرة من جميع الوجوه على من صَاحَبَهُمْ، وشر على من خالطهم. فكم هلك بسببهم أقوام. وكم قادوا أصحابهم إلى المهالك من حيث يشعرون، ومن حيث لا يشعرون. ولهذا كان من أعظم نعم الله على العبد المؤمن: أن يوفقه لصحبة الأخيار. ومن عقوبته لعبده: أن يبتليه بصحبة الأشرار. صحبة الأخيار توصل

العبد إلى أعلى عليين، وصحبة الأشرار توصله إلى أسفل سافلين. صحبة الأخيار توجب له العلوم النافعة، والأخلاق الفاضلة، والأعمال الصالحة. وصحبة الأشرار: تحرمه ذلك أجمع: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ، يَاوَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ، لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا } الفرقان(٢٧ - ٢٩).

إن أقل ما تستفيده من الجليس الصالح - وهي فائدة لا يستهان بها - أن تنكف بسببه عن السيئات والمعاصي، رعاية للصحبة، ومنافسة في الخير، وترفعاً عن الشر، وأن يحفظك في حضرتك ومغيبك، وأن تنفعك محبته ودعاؤه في حال حياتك وبعد مماتك، وأن يدافع عنك بسبب اتصاله بك، ومحبته لك. وتلك أمور لا تباشر أنت مدافعتها، كما أنه قد يصلك بأشخاص وأعمال ينفعك اتصالك بهم. وفوائد الأصحاب الصالحين لا تعد ولا تحصى. وحسب المرء أن يعتبر بقرينه، وأن يكون على دين خليله".

ويؤكد ما أسلفناه من أثر البيئة الفاسدة والبيئة الصالحة على المرء، قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ فَأَتَاهُ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟

فَقَالَ: لا، فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ، فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ، انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا؛ فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَاعْبُدْ اللَّهَ مَعَهُمْ، وَلا تَرْجِعْ إِلَى

أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ، فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلا بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ، وَقَالَتْ مَلائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَط، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الأَرْضَيْنِ: فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ، فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ".

فقد طالبه العالم بتغيير بيئته الفاسدة. قال النووي: "قال العلماء: في هذا استحباب مفارقة التائب المواضع التي أصاب بها الذنوب، والأخدان المساعدين له على ذلك، ومقاطعتهم ما داموا على حالهم، وأن يستبدل بهم صحبة أهل الخير والصلاح والعلماء والمتعبدين الورعين، ومن يقتدى بهم وينتفَع بصحبتهم".

وفي نفس السياق ورد قول النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَثَلِ الْبَهِيمَةِ تُنْتَجُ الْبَهِيمَةَ هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ". حيث أكد على دور وتأثير البيئة المحيطة بالمرء في اكتساب الأخلاق، وكلما كانت البيئة به ألصق،وأكثر ملازمة، كان التأثير أكبر.

ثالثاً- القدوة الحسنة:

الإنسان بطبعه يميل إلى تقليد غيره ومحاكاته، وهذا أمرٌ واقعٌ ومحسوسٌ في دنيا الناس، لا يتجادل فيه اثنان، ولا يتناطح فيه كبشان. وقد قصَّ الله علينا في كتابه العزيز حال كثير من الكفار، ونبَّه إلى أن الذي قادهم إلى الضلال والكفر إنما هو تقليدهم الأعمى للآباء والأسلاف. قال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ} {البقرة:١٧٠}.

إذاً فالمنكر في الأمر ليس هو التقليد، وإنما التقليد القائم على التبعية العمياء، وعلى تعطيل العقل، وإلا فلو كان قائماً على التبصر والتعقل وحسن الاختيار لكان مقبولاً، بل مطلوباً في كثير من الأحيان.

إن دور القدوة الصالحة وأهميتها في التربية الرشيدة لا ينكر، ومن ثمَّ رأينا القرآن الكريم يقص علينا سير الأنبياء والمرسلين، وفي مقدمتهم سيد ولد آدم محمد عليه الصلاة والسلام. وقال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا}{الأحزاب:٢١}. فهو خير قدوة يقتدي بها الأفراد ، وخصوصاً الطامحون لبلوغ الكمال الإنساني في السلوك.

ولئن انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جوار ربه فإن الله قد حفظ لنا من سيرته العطرة ما يكفي أن تكون شاهدة على سمو روحه وكمال نفسه ورفعة أخلاقه، فتقوم بها الحجة علينا، وهي بفضل الله مخدومة مدونة مطبوعة متوافرة في أصقاع الأرض، وما على الراغب في الوقوف عليها، والاقتداء بها إلا بذل جهد يسير ليتمكن من اقتنائها ومطالعتها والعمل بما فيها.

إن الشخصية القيادية تفرض نفسها على الآخرين، وتنتزع منهم الإعجاب رغماً عنهم، وإن ميادين الحياة التي يمكن من خلالها أن تفرض هذه الشخصية أو تلك نفسها على الآخرين كثيرة جداً، فهذا في الشجاعة، وذاك في سداد الرأي والحكمة، وآخر في التربية، وآخر في الإحسان والإيثار وكظم الغيظ، بل قد يكون الميدان الذي يبرز فيه وينال إعجاب الناس مما لا يرضي الله ورسوله كالغناء الماجن، والتمثيل الساقط، وما أشبه ذلك، إلا أن العاقل هو الذي يختار القدوة الصالحة، والنموذج الراقي، الذي يكون التأسي به خيراً وبركة عليه في دنياه وأخراه.

ومن ثمَّ وجدنا القرآن الكريم يقول للرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن تحدث عن بعض الأنبياء والمرسلين: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ} {الأنعام:٩٠}

إن للقدوة الصالحة تأثيراً كبيراً في دفع الناس إلى اكتساب الفضائل لأسباب عديدة، منها:

١- لما كانت القدوة الصالحة محل تقدير وإعجاب كبيرين لدى الناس، فإن ذلك من شأنه أن يدفع الشخص المحروم من أسباب هذا المجد إلى تقليده ومحاكاته لعله يصبح يوماً مثله، فيتكون لديه حافز قوي يدفعه إلى تقليده، ومع مرور الوقت فإن هذا التقليد يتحول لديه إلى خلق مكتسب.

٢- إن وجود القدوات الصالحة، والنماذج الطيبة الراقية، يعطي الآخرين قناعة بأن بلوغ هذه الفضائل أمر ممكن، وهو ما يدفعهم إلى محاولة التخلق بمثل أخلاقهم.

٣- أن النفس البشرية تتأثر بالأمور العملية أكثر بكثير من تأثرها بالأمور النظرية، وإن موقفاً عملياً واحداً ربما يؤثر أكثر من عشر محاضرات نظرية، فمهما حثَّ أحدنا الناس على الصبر والتضحية سيبقى تأثيره قليلاً بالمقارنة مع موقف عملي يُبتلى فيه أحدُنا فيظهر الصبر والجلد والتضحية، وكثيراً ما يقال: إن الرجال مواقف. وموقف واحد قد يرفعه أو يسقطه، وأما الكلام فإن من يحسنه كثيرون، ولا يكلف صاحبه إلا جهداً بسيطاً. إن الناظر في سير العظماء لن يجد لهم الخطب الرنانة، والمحاضرات المنمقة، وإنما يجد المواقف، ودونك فانظر إلى سيرة أبي بكر أو عمر أو عثمان أو علي رضي الله عنهم، فإنك ستجد أن أكثر ما يعرف ويشتهر عنهم، هو مواقفهم الحاسمة في نصرة الدين، ووقوفهم الحازم في وجه أعدائه.

إن أكثر ما يعرفه الناس عامة من سيرة أبي بكر رضي الله عنه، صحبته للنبي في هجرته، وتضحيته ببذل النفس والمال فداءً للرسول صلى الله عليه وسلم، ولدعوته، وكذا ثباته على الحق برباطة جأش يوم وفاة النبي، وقوله في الصحابة: أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت، ومثل ذلك وقفته الحازمة في وجه المرتدين وفي وجه مانعي الزكاة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وقوله: أينقص الدين وأنا حي، و الله لو لم يخرج إليهم أحدٌ لقاتلتهم بسيفي، والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة .

وإن أكثر ما يعرف من سيرة الإمام أحمد بن حنبل امتناعه عن القول بخلق القرآن، وتحمله التعذيب والسجن نصرةً للحق، وعدم إطاعته للخليفة في ذلك. وفي هذا المعنى أثر عن بعض السلف قوله:إن فعل رجل في ألف رجل أبلغ من قول ألف رجل في رجل. وهذا أمر في غاية الأهمية في التربية السلوكية.

إن من واجب المصلحين والدعاة المربين أن يبرزوا للناس؛ وخصوصًا للشباب والنشء النماذجَ الصالحة من أسلافنا من الصحابة والتابعين، فيبرزوا سير العلماء الربانيين، والزهاد الأتقياء العابدين، والقادة الأفذاذ الفاتحين، والمربين الناجحين المؤثرين؛ لتتحرك الهمم نحو التأسي بهم، والسير على نهجهم.

رابعاً- الضغط الاجتماعي: ونعني بذلك المجتمع المسلم، بما يشكله من رقابة على سلوك الأفراد، ويُلزمهم بفضائل الأخلاق.

- وذلك أن الفرد يعيش مع الناس داخل هذا المجتمع أو ذاك، يحتاجهم في شؤون حياته، ولا يستغني عنهم، ويحتاج منهم التقدير والاحترام؛ فإذا ما أقدم على تصرف سيئ، فسيجد من يحاسبه على سلوكه ذاك، وسيشعره بأنه أقدم على سلوك غير مقبول، وأن عليه أن لا يعاوده.

- ويومًا بعد يوم، ومع هذه الرقابة من المجتمع، والضغط الذي يشكله على سلوكه، فإنه سيهجر هذا التصرف السيئ، وسيبدله بتصرف آخر مقبول، يجلب له الرضا والاحترام والتقدير ممن حوله، وبذلك يستقيم خلقه.

الفرق بين الضغط الاجتماعي وتأثير البيئة الصالحة: قد يشكل على البعض الفرق بين الضغط الاجتماعي والبيئة الصالحة، فيعتقد أنهما واحدٌ، والحق أن الضغط الاجتماعي أعم من البيئة؛ لأن المسؤولية فيه مسؤولية اجتماعية، ويمكن التفريق بينهما من خلال ما يأتي:

البيئة: تعني تلك المجموعة من الناس الذين يعيش معهم بشكل مباشر كل يوم، وبصورة مستمرة.

وأما الضغط الاجتماعي: فيعني المجتمع بكل طبقاته وأطيافه وفئاته؛ فهناك رقابة من المجتمع على وسائل الإعلام المختلفة من جرائد ومجلات وكتب وإذاعات وخطب ومقالات ومواعظ وحوارات، فيقوم مستمعوه وقراؤه بمحاسبته على أقواله وتصرفاته المخالفة للفضائل الخلقية.

وهناك نصوصٌ كثيرةٌ حث فيها الإسلام على الضغط الاجتماعي من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، منها :

١- في بيان ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ، فَيَقُولُ: يَا هَذَا، اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ: فَإِنَّهُ لاَ يَحِلُّ لَكَ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ، فَلاَ يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ثُمَّ قَالَ: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} ثُمَّ قَالَ: كَلاَّ وَاللَّهِ، لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا"

٢- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَثَلُ القَائِمِ فِي حُدُودِ اللهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَومٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَصَارَ بَعْضُهُمْ أعْلاها وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، وَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤذِ مَنْ فَوقَنَا، فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أيدِيهِمْ نَجَوا وَنَجَوْا جَمِيعًا"

خامساً- سلطان الدولة:ونعني به السلطة الحاكمة بما تملكه من قوة ردع، وأجهزة رقابة ومحاسبة، وفي بيان أثر هذه الرقابة من الدولة وأهميتها يقول الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه: "إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن".

- أي أن الله تعالى ليدفع بالسلطان أناسًا عن اقتراف المنكر؛ خوفًا من عقوبته؛ لأن قلوبهم ميتة لا تستجيب لنداء القرآن الكريم وما فيه من الترغيب والترهيب، وإيمانهم قد استبد به الضعف، فأصبحوا لا يرتدعون إلا خوفاً من العقوبة، ومن سياط السلطان، حال العبد الذي يُقرع بالعصى، ولا تكفيه الإشارة.

أنتهى

المحاضرة الخامسة

المسؤولية عن السلوك الأخلاقي

يرتبط كلٌ من الإلزام والمسؤولية والجزاء ببعضها ارتباط العلة بالمعلول. بمعنى أن الإلزام يكون أولاً، فتتبعه المسؤولية، وتحمل الالتزام ثم يتبعهما الجزاء.

**

أولاً – الإلزام الخلقي:

<u>تعريف الإلزام الخُلُقي:</u>

الإلزام بصورة عامة هو الفرض والإيجاب.

وفي باب الأخلاق يمكن تعريفه بأنه: تكليفٌ بتشريع خُلُقي.

أو بعبارة أخرى: أمرٌ صادرٌ من الشرع للمكلفين بامتثال خُلُقٍ محمودٍ، أو اجتنابِ خُلُقٍ مذموم.

والمقصود بالمكلف هو الشخص: البالغ العاقل.

أي أنه أمرٌ صادر من الله أو من الرسول للبالغ العاقل، يحمله على خُلُقٍ محمود كالصدق والعدل، أو يحملُه على الابتعاد عن خُلُقٍ مذمومٍ كالكذب والرياء.

مصادر الإلزام الخلقي:

إن مصدر الإلزام الخلقي – كغيره من الأحكام الشرعية - إنما هو الله سبحانه، قال تعالى: {إِنْ الحُكْمُ إِلَّا لِله} {يوسف ٤٠}، وقال جل في علاه: {أَلَا لهُ الخَلْقُ والأَمْرُ} {الأعراف ٥٤}. فالتشريع حقٌ لله وحده.

ثم إن الله تعالى أمرنا باتباع نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: {وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} {الحشر:٧}، وقال أيضاً: {قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الكَافِرِينَ} {آل عمران ٣٢}. فاتباعنا لنبينا محمد عليه الصلاة والسلام إنما هو استجابةٌ وامتثالٌ لأمر الله سبحانه..

العوامل التي تعين على تحقيق الالتزام:

ذكرنا أن مصدر الإلزام هو الشرع، غير أن هناك أموراً تعين على تحقيق الالتزام في حياة الناس، وهي متفرعة عن الشرع، ومنضبطة به، وتتمثل في عوامل داخلية (وهي: الإيمان والعقل والفطرة والضمير الخلقي)، وعوامل خارجية: (وهي المجتمع والسلطة الحاكمة).

وفيما يلي بيان موجز بكل واحدة منها:

-العوامل الداخلية للإلزام: أولاً- الإيمان بالله وباليوم الآخر:

إن كثيراً من الممارسات الخلقية الحميدة لا تقوم إلا على أساس الإيمان بالله واليوم الآخر، والطمع بالثواب والرضا من الله تبارك وتعالى، وليس من البشر، وذلك كما في مقابلة الإساءة بالإحسان، والصبر على الظلم مع القدرة على الرد، والإنفاق على الأيتام والمحتاجين من غير انتظار الجزاء منهم، والتضحية بالمال مع شدة الحاجة إليه، كما قال الله تعالى: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً، إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً} {الإنسان:٨-٩}.

ثانياً- العقل: وذلك أن الإنسان إذا رأى أن عاقبة فعله ستكون نافعة ومفيدة أقدم عليه، وإذا رأى أنها ستكون ضارة أو أليمة أحجم عنه، أي أن العقل كثيراً ما يكون وراء الإقدام على التصرفات الأخلاقية الحميدة، والإحجام عن التصرفات المشينة، فالعقل يقود صاحبه إلى الخلق الحميد، وتعطيله يقوده إلى العكس. وفي هذا جاء إخبار الله عن أهل النار بقوله: [وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ] {الملك:١٠}.

يقول ابن القيم رحمه الله: " أما العقل فقد وضع الله سبحانه في العقول والفطر استحسان الصدق والعدل والإحسان والبر والعفة والشجاعة ومكارم الأخلاق وأداء الأمانات وصلة الأرحام ونصيحة الخلق والوفاء بالعهد وحفظ الجوار ونصر المظلوم والإعانة على نوائب الحق وقرى الضيف وحمل الكل ونحو ذلك ووضع في العقول والفطر استقباح أضداد ذلك ".

ثالثاً- الفطرة: الإنسان بفطرته السوية السليمة يهتدي إلى الأخلاق الحميدة، ويرتاح لها قلبه وضميره، فالعفة والسخاء والحياء والصدق والشجاعة والإحسان والحلم والأناة كلها قيم أخلاقية راقية تهفو إليها الفِطَر السوية، وتسعى للتحلي بها، على العكس من أضداد تلك الصفات كالخِسَّة وصفاقة الوجه، والجبن، وبذاءة اللسان فإن الفِطَر السليمة تستقبحها وتنفر منها، والإسلام دين الفطرة، قال تعالى: [فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ] {الرُّوم:٣٠}، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء) ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه واقرؤوا إن شئتم: { فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله}.

رابعاً- الضمير أو الوازع الديني: ونعني به ذلك الشعور الخفي الذي نحس به في أعماق نفوسنا، يناديا ويدفعنا إلى ممارسة فعل أو الكف عنه. وحين نستجيب له يغمرنا شعور عارم بالراحة واللذة. وأما إذا تجاهلناه حصل معنا العكس تماماً، فتشعرنا بالانقباض والألم النفسي (ويسمى بوخز الضمير)، ونلوم أنفسنا على ذلك التقصير، ولا نريد أن يطلع عليه أحد.

وهذا الضمير إنما يتكون في الفرد في أولى سِنِي حياته ومن خلال القيم التي تغرس فيه، والثقافة التي ينشأ عليها، والتربية التي يتلقاها، والبيئة المحيطة به. ومن هنا كان دور الدين قوياً بل أساساً في نشأته وصياغته في المجتمع الإسلامي. ولعل في قول النبي عليه الصلاة والسلام : "الْبِرُّ ما اطْمَأَنَّ إليه الْقَلْبُ وَاطْمَأَنَّتْ إليه النَّفْسُ وَالإِثْمُ ما حَاكَ في الْقَلْبِ وَتَرَدَّدَ في الصَّدْرِ" ما يشير إلى هذا الضمير الخفي أو الوازع الديني.

- العوامل الخارجية: أولاً- المجتمع: أمر الله سبحانه المسلمين بمراقبة سلوك الأفراد في المجتمع، وأن يأخذوا على يد الشارد منهم، والمنحرف عن جادة الحق، وأن يعاقبوه إذا ارتكب من المحظورات ما يستدعي معاقبته ليكون زاجراً له ورادعاً لغيره. قال تعالى: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللهِ} {المائدة:٣٨}، وقال تعالى: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآَخِرِ} {النور:٢}، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "من رأى منكم منكراً، فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان".

فالأمة كلها مطالبة بأن تراقب أفعال أبنائها وتصرفاتهم.

ثانياً: السلطة الحاكمة: إن أهم واجبات السلطة الحاكمة (والمتمثلة بولي الأمر أو من ينوب عنه) هو حملُ الناسِ على الالتزام بحدود الشرع الحنيف أمراً ونهياً، والتحلي بالأخلاق النبيلة، والابتعاد عن السلوك المنحرف. وقد لخص الإمام الماوردي رحمه الله مهام ولي الأمر هذه في كتابه الأحكام السلطانية في أربع كلمات فقال: هي "حراسة الدين، وسياسة الدنيا".

وحراسة الدين إنما تكون بتطبيق الشريعة، وردع الخارج عليها. وأما سياسة الدنيا فتكون بمنع المنازعات، وقطع الخصومات، وتحقيق العدل بين الرعية، وإيصال الحقوق إلى أصحابها.

- خصائص الإلزام الخُلُقي: يمتاز الإلزام الخلقي في الإسلام بجملة من الخصائص أهمها:

- أنه إلزام بقدر الاستطاعة، فلا تكليف إلا بما يطاق، قال تعالى: [لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا] {البقرة:٢٨٦}.
- أنه إلزام بما فيه يُسر على الناس، ومن ثم فلا تكليف بما فيه حرج، قال تعالى: [وما جعل عليكم في الدين من حرج] {الحج : ٧٨}.
- إنه إلزام روعيت فيه الأحوال الاستثنائية، كما في إعفاء ذوي الأعذار عن الجهاد، قال تعالى: {لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى المَرِيضِ حَرَجٌ} {الفتح:١٧}، وكما في الترخص بالتلفظ بلسانه بالكفر مع بقاء قلبه مطمئناً بالإيمان، قال تعالى: [مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالكُفْرِ صَدْراً] {النحل:١٠٦}.

ثانياً: المسؤولية الخُلقية:

ينتج عن الإلزام بالضرورة المسؤولية وإلا لم يكن إلزاماً بل اختيار.

وتعرف المسؤولية بأنها: "التزام الشخص بما يصدر عنه قولاً أو عملاً".

أو: "تحمل الشخص النتائج المترتبة على ما التزم به من قول أو عمل أو ترك".

- شروط المسؤولية: يمكن إجمال شروط المسؤولية فيما يلي:

١- البلوغُ: وإلا فلو كان صغيراً فلا تكليف ولا مسؤولية عليه، لقصور فهمه عن إدراك معاني خطاب الشرع.

٢- العَقْل: وإلا فلو كان مجنوناً فلا تكليف ولا مسؤولية، لأنَّه لا يعقِل أمر الشرع ونهيه. ودليل الاثنين قول النبي صلى الله عليه وسلم: (رفع القلم عن ثلاث: عن المجنون حتى يفيق، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن النائم حتى يستيقظ).

٣- الاختيار: أي أن يكون العمل نابعاً من إرادته، حراً مختاراً فيه. وفي الحديث يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إنَّ اللَّهَ وَضَعَ عن أمتي الخطأ والنسيَانَ وما استُكْرِهُوا عليه)

٤- النية، إذ المسؤولية الحقيقية عند الله إنما هي على نية المرء دون ظاهر سلوكه. بمعنى أن العمل لو صدر من الشخص بإرادته، ولم يكن ينوي النتيجة التي ترتبت عليه، فإن الله سبحانه يحاسبه على نيته الحقيقية وليس على ظاهر عمله. قال الله تعالى في بيان هذه الحقيقة: {لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ} (البقرة: ٢٢٥). ويقول النبي صلى الله عليه وسلم (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى).

٥- العلم بالعمل المطلوب منه وبحكمه الشرعي هل هو محرم أم واجب. أو إمكانية العلم بذلك، بأن تكون فرصة معرفة الحكم متاحة له بالتعلم المباشر أو السؤال. قال الله تعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} (الإسراء: ١٥).

٦- كون العمل مما يطاق، أي أنه بمقدوره فعل الشيء أو تركه، وإلا فمتى كان العمل فوق طاقته لم يحاسبه الله عليه، وتسقط مسؤوليته عنه. قال تعالى: {لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} (البقرة: ٢٨٦).

- خصائص المسؤولية:

تتسم المسؤولية في الإسلام بأنها شخصية أو فردية، بمعنى أن الإنسان يتحمل مسؤولية تصرفاته فحسب، دون تصرفات غيره، وقد أكدت هذه الحقيقة آيات كثيرة من كتاب الله منها: {مَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى} {الإسراء ١٥}.

غير أن هناك مسؤوليات أخرى كالمسؤولية التقصيرية (كمسؤولية الأب عن انحراف أبنائه أو الشخص عن من له ولاية عليه كما في الحديث: "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته"). والمسؤولية الاجتماعية أو التكافلية، وهي مسؤولية كل فرد مكلف في المجتمع عن القيام بواجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والأخذ على يد المنحرف. يقول عليه الصلاة والسلام: (من رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بيده فَإِنْ لم يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لم يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ).

- أنواع المسؤولية: تنقسم المسؤولية إلى ثلاثة أنواع:

١. المسئولية الأخلاقية المحضة: وتعني الالتزام الذاتي من الإنسان نفسه على الإتيان بشيء أو الانتهاء عن فعل شيء.
٢. المسئولية الاجتماعية: وتعني الالتزام تجاه الآخرين من أبناء المجتمع، وما يفرضه المجتمع من قواعد.
٣. المسئولية الدينية: وتعني الالتزام أمام اللّه تعالى.

- **ثالثاً – الجزاء الأخلاقي:**

تعريفه: هو الأثر المترتب على الفعل الأخلاقي: سواءٌ أكان ظاهراً كالسجن، أم باطناً كتأنيب الضمير. وسواءٌ أكان في الدنيا كالعقوبات المقررة شرعاً على الجرائم، أم في الآخرة كنعيم الجنة.

- أنواعه: للجزاء ثلاثة أنواع هي: الشعور النفسي، والعقوبات الشرعية، والجزاء الإلهي.

١- الشعور النفسي: ونعني به ما يلمسه المسلم من نفسه من الرضا عند الطاعة والألم عند المعصية -وهو ما يسمى برضا الضمير أو وخزه- وقد أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام عن ذلك الشعور واعتبره من علامات الإيمان، فقال: (من سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فذلك الْمُؤْمِنُ).

٢- العقوبات الشرعية:

ونعني به العقوبات التي أقرتها الشريعة الإسلامية لأولئك الذين يتعدون حدود اللّه. والغاية من هذا الجزاء الشرعي معاقبة المجرم وردعه، وكذا ردع الآخرين ممن يمكن أن تسول له نفسه ارتكاب مثل تلك الجرائم.

وهذه العقوبات على نوعين:

حدود: وهي جزاءات حددها الشرع كحد الزنا، والسرقة، والقذف... .

وتعزيرات: أي عقوبات تأديبية يفرضها القاضي على جناية أو معصية لم يحدد الشرع فيها عقوبة.

٣- الجزاء الإلهي: ونعني به الجزاء الذي يكون من الله في الدنيا أو الآخرة.

ففي حالة الطاعة والامتثال له في الدنيا الرضا من الله والتوفيق والحفظ وتيسير الأمور والنصر والعزة، وهناك آيات كثيرة تؤكد هذا منها: { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ} {الطلاق ٢- ٣}. ومنها { إن تنصروا الله ينصركم} {محمد ٧}.

وفي الآخرة له الجنة والرضا، قال تعالى: { إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً..} {الكهف ١٠٧}.

وفي حالة المعصية والاستمرار عليها وعدم التوبة منها له في الدنيا ضنك العيش والمصائب والسخط من الله، قال تعالى: {ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا} {طه ١٢٤}.

وفي الآخرة له نار جهنم والسخط من الله، قال تعالى: [إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَالمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ البَرِيَّةِ] {البيّنة:٦}.

أنتهى

المحاضرة السادسة

نماذج من أخلاق النبي الكريم صلى الله عليه وسلم

*

الرسول ذو الخلق العظيم: قال تعالى مادحاً نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم: {وَإِنّكَ لَعَلَىَ خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم ٤] وتقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في وصف أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام:(كان خلقه القرآن). أي أن أخلاقه عليه الصلاة والسلام كانت تجسيداً عملياً لما جاء به القرآن الكريم من أوامر أو نواهي أو مُثُلٍ عليا، فهو الذي اختاره الله سبحانه ليكون أسوة ومثلاً أعلى للبشرية، فقال تعالى: {لقد كان لكم في رسول الله أسوةَ حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا} {الأحزاب:٢١}.

وهو الذي وصفه الله بأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، وهو الذي قال الله فيه: { النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم} {الأحزاب: ٦} زكى الله لسانه فقال تعالى: [وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى] {النَّجم:٣}، وزكى صدره، فقال: [أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ] {الانشراح:١}، وزكى هديه ومنهجه فقال: [وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ] {الشُّورى:٥٢}، وفيما يلي عرض نماذج من أخلاق النبي الكريم صلى الله عليه وسلم:

١- عبادة النبي صلى الله عليه وسلم: كان النبي عليه الصلاة والسلام، أتقى الناس وأخشاهم لله، وأكثرهم عبادة وتألهاً، تقول عائشة رضي الله عنها: كان النبي صلى الله عليه وسلم يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقلت: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال عليه الصلاة والسلام: (أفلا أكون عبداً شكوراً).

وكان يدعو ويسبح ويثني على الله تبارك وتعالى ويخشع، يقول عبد الله بن الشخير رضي الله عنه: (أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ولجوفه أزيزٌ كأزيز المرجل من البكاء).

وكان يكثر من الصيام. تقول عائشة رضي الله عنها: (كان يصوم حتى نقول لا يفطر، ويفطر حتى نقول لا يصوم، ولم أره صائماً في شهرٍ قط أكثر منه في شعبان، كان يصوم شعبان كله، كان يصوم شعبان إلا قليلاً)

وكان ينظر إلى نفسه وعبادته فيرى نفسه مقصراً في جنب الله فيقول: إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله مائة مرة)

٢- خلق النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة: كانت دعوته عليه الصلاة والسلام لجميع الخلق، وكان يعلم المخطئ والمسيء بأحسن أسلوب، بألطف عبارة وأحسن إشارة، وفيما يلي صور من ذلك:

١- روى أبو أُمامة . رضي الله عنه . قال: إن فتىً شاباً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه. فقال له: (ادنه)، فدنا منه قريباً، قال: (أتحبّه لأمّك؟) قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: (ولا الناس يحبونه لأمهاتهم) قال: (أفتحبه لابنتك؟) قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك. قال: (ولا الناس جميعاً يحبونه لبناتهم) قال: (أفتحبه لأختك؟) قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: (ولا الناس جميعاً يحبونه لأخواتهم). قال: (أفتحبه لعمتك؟)

قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: (ولا الناس جميعاً يحبونه لعماتهم). قال: (أفتحبه لخالتك؟) قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: (ولا الناس جميعاً يحبونه لخالاتهم) قال:فوضع يده عليه، وقال: اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصّن فرجه) فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء.

٢- عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال بينما نحن في المسجد مع رسول الله {صلى الله عليه وسلم} إذ جاء أعرابيٌّ فقام يبول في المسجد فقال أصحاب رسول الله {صلى الله عليه وسلم} مه مه فقال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} لا تزرموه دعوه فتركوه حتى بال ثم إن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} دعاه فقال له إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول والقذر إنما هي لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن أو كما قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} قال وأمر رجلاً من القوم فجاء بدلوٍ من ماء فشنه عليه).

وفي هذا درس بليغ لنا في الدعوة إلى الدين بالرفق واللين، قال تعالى: { ادْعُ إِلِىَ سَبِيلِ رَبّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل:١٢]

٣- رحمة النبي صلى الله عليه وسلم: كان الرسول صلى الله عليه وسلم رحمة من الله للناس كافة، مسلمهم وكافرهم، صالحهم ومسيئهم، قال تعالى:{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} (الانبياء:١٠٧)، ويقول هو صلى الله عليه وسلم عن نفسه: "إنما أنا رحمة مهداة". وفي القيامة هو رحمة للجميع، حيث يشفع لهم ليريحهم من هول الموقف.

وعندما طلب منه بعض أصحابه أن يدعو على المشركين أجابهم بقوله: "إني لم أبعث لعاناً" ولم يدع عليهم. وكان يقول : "رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون"، وبلغ من رحمته صلى الله عليه وسلم أن دعا الله بأن يجعل سَبَّهُ ولعنهُ لِمَنْ أغضبه رحمةً، فقال: "اللهم إنما أنا بشر، فأيُّ المسلمين سببته أو لعنته، فاجعلها له زكاة وأجراً"

لقد ملأ الله قلبَ محمدٍ رحمة بالمؤمنين فقال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ}(آل عمران١٥٩)

وبلغ من شفقته ورحمته بأمته أن دعا على ولاة الأمور الذين لا يرفقون برعاياهم فقال صلى الله عليه وسلم: "اللهم من وليَ من أمرِ أمتي شيئاً، فشقَّ عليهم، فاشقُق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً، فرفق بهم، فارفق به". وقال صلى الله عليه وسلم في بيان فضل الرحمة والحث عليها: "الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء"

ومما يدل على أن قلب النبي صلى الله عليه وسلم كان مفعماً بالرحمة والشفقة، بكاؤه على ولده إبراهيم في مجتمع يعيب مثل هذا الأمر، ويعتبره ضعفاً في الرجال، فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: دَخَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى أَبِي سَيْفٍ الْقَيْنِ، وَكَانَ ظِئْراً لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إِبْرَاهِيمَ فَقَبَّلَهُ وَشَمَّهُ، ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذلِكَ، وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ، فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم تَذْرِفَانِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمنِ بْنُ عَوْفٍ رضي الله عنه: وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ! فَقَالَ: "يَا ابْنَ عَوْفٍ، إِنَّهَا رَحْمَةٌ"، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلاَ نَقُولُ إِلاَّ مَا يَرضى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ"

٤- صدقه صلى الله عليه وسلم: كان الصّدق سِمةَ أقوال النبي عليه الصلاة والسلام وأفعاله وإيمانه. قال تعالى: {وَالَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} (الزمر: ٣٣). وهو الرسول صلّى الله عليه وسلّم حيث جاء بالقرآن وآمن به، وكذلك آمن

أتباعه بما جاء به. وقال عليه الصلاة والسلام لأصحابه: (قد عَلِمْتُمْ أَنِّي أَتْقَاكُمْ لِلَّهِ وَأَصْدَقُكُمْ وَأَبَرُّكُمْ) وقد لقب بالصادق الأمين حتى قبل إعلانه دعوته، وإعلامهم بأن الله قد أرسله إليهم، وفي الصورتين الآتيتين ما يؤكد هذه الحقيقة:

١- اعتراف أعدائه بصدقه حتى قبل إعلانه لدعوته: فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: لما نزلت الآية {وأنذر عشيرتك الأقربين}(الشعراء:٢١٤)، صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا، فجعل ينادي: "يا بني فهر، يا بني عدي"؛ لبطون قريش، حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً؛ لينظر ما هو؟ فجاء أبو لهب وقريش. فقال: "أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم، كنتم مصدقي؟" قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقًا. قال: "فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد"، فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟! فنزلت: {تبت يدا أبي لهب وتب} الآية".(المسد:١).

٢- ما أخبر به عبد الله بن سلام الحبر اليهودي وبسببه أسلم:

قال عبد الله بن سلام رضي الله عنه: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم الْمَدِينَةَ، انْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ، وَقِيلَ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لِأَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا اسْتَثْبَتُّ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ، وَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ: "أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ".

هكذا لم يحتج الأمر منه لكي يعلم أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى أن ينظر إلى وجهه الكريم ليعرف أنه ليس بوجه كذاب.

٥- شجاعة النبي صلى الله عليه وسلم: لعل أهم وأبرز ما تتجسد فيه شجاعة النبي صلى الله عليه وسلم مواجهته لقومه وللمشركين من حوله بمبادئ الدين الحنيف وعقائده، والتي تتعارض مع ما ألفوه وتوارثوه عن آبائهم وأسلافهم. وفيما يلي نستعرض بعضاً من صور شجاعته صلى الله عليه وسلم :

١- سبقه لكشف أخبار العدو: فقد روي عن أنس بنِ مالك رضى الله عنه أنه قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَحْسَنَ النَّاسِ وَكَانَ أَجْوَدَ النَّاسِ وَكَانَ أَشْجَعَ النَّاسِ وَلَقَدْ فَزِعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَانْطَلَقَ نَاسٌ قِبَلَ الصَّوْتِ فَتَلَقَّاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم رَاجِعًا وَقَدْ سَبَقَهُمْ إِلَى الصَّوْتِ وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرْيٍ فِي عُنُقِهِ السَّيْفُ وَهُوَ يَقُولُ لَمْ تُرَاعُوا لَمْ تُرَاعُوا قَالَ: وَجَدْنَاهُ بَحْرًا أَوْ إِنَّهُ لَبَحْرٌ) أي أن الفرس كان سريعاً فسبقتكم إلى الصوت وليس هناك ما يخيف فارجعوا.

٢- وروي عن عليٍّ رضى الله عنه أنه قال: كُنَّا إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ، وَلَقِيَ الْقَوْمُ الْقَوْمَ، اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى الله عَلَيه وسَلَّم، فَمَا يَكُونُ أَحَدٌ أَقْرَبَ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ.

٣- موقفه صلى الله عليه وسلم يوم حنين، فعن سيدنا العباس رضي الله عنه قال شهدت مع رسول الله {صلى الله عليه وسلم} يوم حنين، فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين فطفق رسول الله {صلى الله عليه وسلم} يُرْكض بغلته قِبَل الكفار قال العباس وأنا آخذٌ بلجام بغلة رسول الله {صلى الله عليه وسلم} أكفها إرادة ألا تسرع فقال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} أي عباس ناد أصحاب السمرة. قال عباس - وكان رجلاً صيتاً فقلت: أين المهاجرون الأولون أين أصحاب سورة البقرة والنبي صلى الله عليه و سلم يقول قدما: أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب. قال فو الله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على

أولادها فقالوا يا لبيك يا لبيك قال فاقتتلوا والكفار حتى انهزم الكفار. قال وكأني أنظر إلى النبي {صلى الله عليه وسلم} يركض خلفهم على بغلته.

٦- عفو النبي صلى الله عليه وسلم: كان النبي صلى الله عليه وسلم متخلقاً بالعفو في أكمل صوره استجابة لأمر ربه في قوله تعالى: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ} (الأعراف: ١٩٩). ولعل من أروع تلك الصور:

١- عفوه عليه الصلاة والسلام عن أهل مكة المكرمة بعد الفتح، مع شدة إيذائهم له ولأصحابه، واضطهادهم، وملاحقتهم إلى الحبشة، والاستيلاء على ديارهم وأموالهم التي تركوها خلفهم في مكة إبَّان هجرتهم. ولكنه عليه الصلاة والسلام حين دخلها فاتحاً، وأمكنه الله من رقابهم، وقف فيهم خطيباً وقال: (يا معشر قريش؛ ما تقولون؟) قالوا: نقول: ابنُ أخٍ، وابنُ عمٍ، رحيمٌ كريمٌ. ثم أعاد عليهم القول. فقالوا مثل ذلك. قال: فإني أقول كما قال أخي يوسف عليه السلام: {لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ} (يوسف: ٩٢) فخرجوا، فبايعوه على الإسلام.

٢- عفوه عليه الصلاة والسلام عن مَنْ هَمَّ بقتله بعد أن أمكنه الله منه: فقد روى جَابِرَ بن عبد اللَّهِ رضي الله عنهما أَنَّهُ غَزَا مع رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قِبَلَ نَجْدٍ. فلما قَفَلَ رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَفَلَ معه، فَأَدْرَكَتْهُمْ الْقَائِلَةُ في وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاهِ، فَنَزَلَ رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، وَتَفَرَّقَ الناس يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ. فَنَزَلَ رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم تَحْتَ سَمُرَةٍ، وَعَلَّقَ بها سَيْفَهُ، وَنِمْنَا نَوْمَةً. فإذا رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَدْعُونَا، وإذا عِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ. فقال: (إنَّ هذا اخْتَرَطَ عَلَيَّ سَيْفِي وأنا نَائِمٌ، فَاسْتَيْقَظْتُ وهو في يَدِهِ صَلْتًا، فقال: من يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ فقلت: الله. فَهَا هو ذَا جَالِسٌ) ثُمَّ لم يُعَاقِبْهُ رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، وَجَلَسَ".

وغيرها من الصور كثيرة جداً تزخر بها كتب السنة والسيرة النبوية لا يتسع المقام لذكر المزيد منها، وغرضنا هو التمثيل والتدليل فحسب.

أنتهى

المحاضرة السابعة

جوانب أخرى من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم

*

٧- تواضع النبي صلى الله عليه وسلم : كان عليه الصلاة والسلام لا يتميز عن أصحابه بهيئةٍ أو لباسٍ أو مكان جلوسٍ أو غير ذلك مما يتميز به وجهاء الدنيا. يُجيب دعوة الحر والعبد، والغني والفقير، ويجلس على الأرض، ويأكل على الأرض ويحلب الشاة. ويعود المرضى، ويقبل عذر المعتذر. يدخل عليه الرجل ممن لا يعرفُهُ فيسأل أيُّكم محمد؟ والنبيُ بين ظهرانيهم، فلا يعرفه حتى يجيبونه: هذا هو.

ونذكر فيما يلي صوراً من تواضعه صلى الله عليه وسلم:

فعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجلٌ، فكلمه فجعل تُرْعَدُ فرائصه، قال جرير: فقال له النبي: (هون عليك فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش، كانت تأكل القديد في هذه البطحاء). ثم تلا جرير بن عبد الله البجلي {وما أنت عليهم بجبار}.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعود المريض ويتبع الجنائز ويجيب دعوة المملوك ويركب الحمار ولقد كان يوم خيبر ويوم قريظة على حمار خطامه حبل من ليف وتحته أكاف من ليف.

وكان صلى الله عليه وسلم ينهى عن مدحه وإلقاء الألقاب عليه، ويقول: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبدٌ فقولوا عبد الله ورسوله).

وكان يحذر من الكِبر، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر". قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله جميل يحب الجمال، الكِبر بَطَرُ الحق، وغَمْطُ الناس" ومعنى بطر الحق: دفعه وإنكاره ترفعاً وتجبراً. ومعنى غمط الناس: احتقارهم. فبين النبي صلى الله عليه وسلم المعنى الصحيح للكِبْر، وأنه التكبر على الحق، واحتقار الناس.

وقد بلغ من تواضع النبي صلى الله عليه وسلم، ورغبته في جبر خواطر الناس أن قال: "لو دُعيت إلى كراعٌ لأجبتُ، ولو أُهدِيَ إليَّ ذراع لقبلتُ"

ومن تواضعه صلى الله عليه وسلم أنه كان يدعى إلى خبز الشعير والإهالة السنخة فيجيب. والإهالة السنخة: تعني الدهن الجامد المتغير الريح من طوال المكث.

وعن أنس أن خياطاً دعا النبي صلى الله عليه وسلم لطعام صنعه قال أنس فذهبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك الطعام فقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم خبزاً من شعير ومرقاً فيه دباء وقديدٌ قال أنس فرأيت رسول الله يتتبع الدباء من حوالي الصحفة.

٨- زهد النبي صلى الله عليه وسلم: كان صلى الله عليه وسلم أزهد الناس في الدنيا وأرغبهم في الآخرة خيره الله تعالى بين أن يكون ملكاً نبياً أو يكون عبداً نبياً، فاختار أن يكون عبداً نبياً.

كان ينامُ على الفراش تارة، وعلى الحصير تارة، وعلى الأرض تارة، وعلى السرير تارة.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: (دخل عمر وناس من الصحابة فانحرف النبي صلى الله عليه وسلم فرأى عمر أثر الشريط في جنبه فبكى فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما يبكيك يا عمر قال: ومالي لا أبكي وكسرى وقيصر يعيشان فيما يعيشان فيه من الدنيا وأنت على الحال الذي أرى فقال يا عمر: أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة قال : بلى. قال: هو كذلك.

وكان من زهده صلى الله عليه وسلم وقلة ما بيده أن النار لا توقد في بيته في الشهر والشهرين، فعن عائشة . رضي الله عنها . أنها كانت تقول لعروة بن الزبير: والله يا ابن أختي كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثلاثة أهله في شهرين ما أوقد في أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نار، قلت: يا خالة فما كان عيشكم؟ قالت: الأسودان . التمر والماء).

٩- صبر النبي صلى الله عليه وسلم: الصبر خُلُق محمودٌ، ومطلوبٌ من كل مسلم ولكن بدرجات متفاوتة. وكلما كان الطموح في التقرب إلى الله أكبر، كانت الحاجة إلى الصبر أشد. ومن ثم كانت حاجة النبي صلى الله عليه وسلم إلى التسلح بهذا الخُلُق أعظم. وقد كان حظ النبي منه كبيراً، فلقد أوذي كثيراً من المشركين في مكة، ومن المنافقين في المدينة المنورة، ومن صور الإيذاء تلك:

ما كان يوم العقبة، فقد لقي من قومه قدراً عظيماً من الأذى، فتوجه إلى ربه يبثُّ إليه شكواه. وإذا جبريل ومعه ملك الجبال يستأذنه ليُطبق عليهم الأخشبين -جبلا مكة: أبو قبيس والأحمر- ولكنه صلى الله عليه وسلم أبى وصبر، وقال: (بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ الله من أَصْلَابِهِمْ من يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شيئاً).

ومن ذلك ما رواه طارق المحاربي قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بسوق ذي المجاز فمَرَّ وعليه جبة له حمراء وهو ينادي بأعلى صوته: " يا أيها الناس!

قولوا: لا إله إلا الله - تفلحوا" ، ورجل يتبعه بالحجارة وقد أدمى كعبيه وعرقوبيه وهو يقول: يا أيها الناس! لا تطيعوه فإنه كذاب؛ قلت: من هذا؟ قالوا: غلام من بني عبد المطلب، قلت: فمن هذا يتبعه يرميه؟ قالوا: هذا عمه عبد العزى - وهو أبو لهب.

وعن الحارث بن الحارث الغامدي قال: حججت مع أبي فلما كنا بمنى إذا جماعة على رجل! فقلت: يا أبة! ما هذه الجماعة؟ فقال: هذا الصابئ الذي ترك دين قومه، ثم ذهب أبي حتى وقف عليهم على ناقته، فذهبت أنا حتى وقفت عليهم على ناقتي، فإذا به يحدثهم وهم يردون عليه، فلم يزل موقف أبي حتى تفرقوا عن ملل وارتفاع من النهار، وأقبلت جارية في يدها قدح فيه ماء ونحرها مكشوف، فقالوا: هذه بنته زينب، فناولته وهي تبكي، فقال: "خمري عليك نحرك يا بنية ! ولا تخافي على أبيك غلبة ولا ذلاً.

١٠- مزاح النبي صلى الله عليه وسلم: كان من هديه صلى الله عليه وسلم أن يمزح مع أصحابه لمؤانستهم، ولإدخال السرور على قلوبهم، وليعلمهم أن في ديننا فسحة. فالنفوس تَمَلُّ وتَسْأمُ، وتحتاج إلى الترويح والترفيه؛ إلا أنه عليه الصلاة والسلام (لم يكن يقول في مِزاحه إلا حقاً). ولم يكن يكثر منه؛ لأنه كثرته تُقسي القلب، وتُشغل عن ذكر الله، وعن التفكير في مهمات الدين، وقد تنتهي إلى منازعاتٍ وأحقاد، وتُسقط المهابة والوقار.

وفيما يلي صورٌ من مِزاحه عليه الصلاة والسلام:

من ذلك أن امرأة عجوزاً سألته صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: يا رسول الله! ادع الله أن يدخلني الجنة. فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: (يا أُم فلان إن الجنة لا تدخلها عجوز، فولت تبكي. فقال: أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز، إن الله تعالى يقول: {إِنّآ أَنشَأْنَاهُنّ إِنشَآءً فَجَعَلْنَاهُنّ أَبْكَاراً عُرُباً أَتْرَاباً} [الواقعة ٣٥–٣٧]

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه (أنَّ رجلاً أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسولَ الله احمِلْنا على بعير. فقال: أحْمِلُكُمْ على وَلَدِ الناقةِ. قال: وما نَصْنَع بولدِ الناقةِ ؟ فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: هل تَلِدُ الإبِلَ إلا النُّوقُ ؟).

وعن أنس بن مالك أن رجلا من أهل البادية يقال له : زاهر بن حرام كان يهدي إلى النبي صلى الله عليه و سلم الهدية فيجهزه رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا أراد أن يخرج فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: (إن زاهرا بادينا ونحن حاضروه). قال: فأتاه النبي صلى الله عليه و سلم وهو يبيع متاعه فاحتضنه من خلفه والرجل لا يبصره، فقال: أرسلني، من هذا؟ فالتفت إليه فلما عرف أنه النبي صلى الله عليه و سلم جعل يلزق ظهره بصدره. فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: (من يشتري هذا العبد)؟ فقال زاهر: تجدني يا رسول الله كاسدا. قال: (لكنك عند الله لست بكاسد). أو قال صلى الله عليه و سلم: (بل أنت عند الله غال).

١١- حياء النبي صلى الله عليه وسلم: يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقاً، وَإِنَّ خُلُقَ الْإِسْلَامِ الْحَيَاءُ). أي: أن لكل دين طبعاً، وطبع هذا الدين الذي به قِوامُه وجَمالُه هو الحياء.

وهو خُلُق يخص الإنسان، ومن أفضل خصال الأخلاق، ولولاه لم يستر المرء له عورة، ولم يمتنع من فاحشة، بل إن كثيراً من الناس لولا الحياء لم يؤدِّ واجباً، ولم يراع حقاً لمخلوقٍ.

وفيما يخص النبي صلى الله عليه وسلم، فإنه كان شديد الحياء، حتى قال فيه أَبِو سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأنه كان "أَشَدَّ حَيَاءً مِنْ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا، وكان إِذَا كَرِهَ شَيْئًا عُرِفَ فِي وَجْهِهِ". والخِدر: الستر أو الخلوة. وإنما قال أبو سعيد ذلك: لأن حياء العذراء في الخلوة يشتد أكثر مما لو كانت في غير خلوة، لكون الخلوة مظنة وقوع الفعل بها. ويضيف أبو سعيد أنه ﷺ لم يكن يواجه أحداً ويصارحه بما يكرهه منه لشدة حيائه، بل كان يتغير وجهه، فيفهم أصحابه كراهيته لذلك الأمر.

١٢- عدل النبي صلى الله عليه وسلم : العدل هو المساواة في المكافأة في خيرٍ أو شرٍ. والإحسانُ مقابلةُ الخيرِ بأكثر منه، والشرِ بتركه أو بأقل منه.

ومن يقرأ في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم يجده المثل الكامل في الأمرين. ففيما يتعلق بإنصاف غيره من نفسه، فإنه كان يأخذ بالعدل. وفيما يتعلق بالانتصاف لنفسه من غيره، فإنه كان يأخذ بالإحسان.

روى أبو سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ رضي الله عنه قَالَ: بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- وَهُوَ يَقْسِمُ قَسْماً، أَتَاهُ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ -وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِى تَمِيمٍ- فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اعْدِلْ. فَقَالَ: (وَيْحَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ. لَقَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلْ). فَقَالَ عُمَرُ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِى فِيهِ أَضْرِبْ عُنُقَهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: (دَعْهُ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا

يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلاَتَهُ مَعَ صَلاَتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يَجُوزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلاَمِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ)

ولما سرقت المرأة المخزومية أهمَّ قُرَيْشًا شأنها، فَقَالُوا من يُكَلِّمُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم؟ وَمَنْ يَجْتَرِئُ عليه إلا أُسَامَةُ حِبُّ رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم! فَكَلَّمَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فقال: (أَتَشْفَعُ في حَدٍّ من حُدُودِ اللَّهِ؟) ثُمَّ قام فَخَطَبَ قال: (يا أَيُّهَا الناس؛ إنما ضَلَّ من كان قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إذا سَرَقَ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وإذا سَرَقَ الضَّعِيفُ فِيهِمْ أَقَامُوا عليه الْحَدَّ. وأيم اللَّهِ لو أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعَ مُحَمَّدٌ يَدَهَا)

وكان أُسَيْدُ بن حُضَيْرٍ يُحَدِّثُ قَوْمَه ذات مرة ويُضْحِكُهُمْ بمزاحه ومليح كلامه، والنبي صلى الله عليه وسلم معهم في المجلس، فطَعَنَهُ النبي في خَاصِرَتِهِ بِعُودٍ. فقال: أَصْبِرْنِي (أي؛ أقدني من نفسك). فقال: (اصْطَبِرْ). قال: إِنَّ عَلَيْكَ قَمِيصاً، وَلَيْسَ عَلَيَّ قَمِيصٌ. فَرَفَعَ النبي صلى الله عليه وسلم عن قَمِيصِهِ. فَاحْتَضَنَهُ وَجَعَلَ يُقَبِّلُ كَشْحَهُ (أي؛ بطنه فوق مشد الإزار). قال: إنما أَرَدْتُ هذا يا رَسُولَ اللَّهِ"

هذه بعض صور عدله، وأما صور إحسانه فقد مر معنا بعض الأمثلة كمعاملته لقريش بعد فتح مكة، ومن آذوه في جسده الشريف، أو بكلامهم فيه، ولم يقتص منهم بل عفا وأصفح.

١٣- أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم مع أهله : حثَّ الرسول عليه الصلاة والسلام على حسن التعامل مع الأهل، فقال: (خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وأنا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي). وكما وصف الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه، فقد كان خير الناس لأهله في طيب كلامه معهن، وحسن عشرته لهن، وإكرامه لمشاعرهن. ذكرت السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا كَانَتْ مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِي سَفَرٍ وَهِيَ جَارِيَةٌ فَقَالَ لأَصْحَابِهِ: (تَقَدَّمُوا). فَتَقَدَّمُوا. ثُمَّ قَالَ: (تَعَالِ أُسَابِقْكِ). فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ عَلَى رِجْلِي، فَلَمَّا كَانَ بَعْدُ، خَرَجْتُ أَيْضاً مَعَهُ فِي سَفَرٍ، فَقَالَ لأَصْحَابِهِ: (تَقَدَّمُوا). ثُمَّ قَالَ: (تَعَالِ أُسَابِقْكِ). وَنَسِيتُ الَّذِي كَانَ، وَقَدْ حَمَلْتُ اللَّحْمَ، فَقُلْتُ: وَكَيْفَ أُسَابِقُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَنَا عَلَى هَذِهِ الْحَالِ؟ فَقَالَ: (لَتَفْعَلِنَّ). فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقَنِي فَقَالَ: (هَذِهِ بِتِلْكَ السَّبْقَةِ).

وتروي السيدة عائشة أم المؤمنين أيضاً فتقول: "والله لقد رأيت رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُومُ على بَابِ حُجْرَتِي، وَالْحَبَشَةُ يَلْعَبُونَ بِحِرَابِهِمْ في مَسْجِدِ رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، يَسْتُرُنِي بِرِدَائِهِ لِكَيْ أَنْظُرَ إلى لَعِبِهِمْ، ثُمَّ يَقُومُ من أَجْلِي حتى أَكُونَ أنا التي أَنْصَرِفُ، فَاقْدِرُوا قَدْرَ الْجَارِيَةِ الْحَدِيثَةِ السِّنِّ حَرِيصَةً على اللَّهْوِ).

وحين سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يَصْنَعُ في بَيْتِهِ، أجابت: "كان يَكُونُ في مِهْنَةِ أَهْلِهِ - تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ-، فإذا حَضَرَتْ الصَّلَاةُ خَرَجَ إلى الصَّلَاةِ". وفي أحاديث أخرى كانت إجابتها أكثر تفصيلاً، فقد ذكرت صور خدمته صلى الله عليه وسلم في بيته، فقَالَتْ: "كان يفعل مَا يَفْعَلُ أَحَدُكُمْ في مِهْنَةِ أَهْلِهِ، يَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيَخِيطُ ثَوْبَهُ، وَيَرْقَعُ دَلْوَهُ". وهذ كله من تواضعه عليه الصلاة والسلام، ورغبته في أن يخدم نفسه، ولا يكون عبئاً على أهله.

ومن دلائل احترامه الكبير، وحبه الشديد لزوجته خديجة رضي الله عنها، إن كان يذبح الشاة ثم يهديها إلى صديقاتها، وذلك بعد مماتها.

١٤- أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم مع الأطفال: كان صلى الله عليه وسلم يمر بالصبيان فيسلم عليهم. ويسمع جواري يغنين في بيته ويلعبن فلا يمنعهن. تقول السيدة عَائِشَةَ رضي الله عنه: "دخل عَلَيَّ أبو بَكْرٍ وَعِنْدِي جَارِيَتَانِ من جَوَارِي الْأَنْصَارِ تُغَنِّيَانِ بِمَا تَقَاوَلَتْ بِهِ الْأَنْصَارُ يوم بُعَاثَ. قالت: وَلَيْسَتَا بِمُغَنِّيَتَيْنِ. فقال أبو بَكْرٍ: أَبِمَزْمُورِ الشَّيْطَانِ في بَيْتِ رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَذَلِكَ في يَوْمِ عِيدٍ. فقال رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: (يا أَبَا بَكْرٍ إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيدًا وَهَذَا عِيدُنَا).

وكان من شدة شفقته على الأطفال ورحمته بهم، أنه كان وهو في الصلاة -التي هي أعظم عبادة- ومع أصحابه يؤمهم جماعة، يسمع بكاء الصبي فيخفف من صلاته رحمة به وبأمه لِما يعلمه من وَجْد الأم وعطفها على ولدها. يقول صلى الله عليه وسلم: (إني لَأَقُومُ في الصَّلَاةِ أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فيها فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَأَتَجَوَّزُ في صَلَاتِي كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ على أُمِّهِ).

وكان صلى الله عليه وسلم "يَؤُمُّ الناس وَأُمَامَةُ بِنْتُ أبي الْعَاصِ -وهى ابْنَةُ زَيْنَبَ بِنْتِ النبي صلى الله عليه وسلم- على عَاتِقِهِ، فإذا رَكَعَ وَضَعَهَا، وإذا رَفَعَ من السُّجُودِ أَعَادَهَا"().

ودخل الحسن والحسين رضي الله عنهما المسجد ذات مرة، والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب في الناس، فنظر إليهما فإذا هما يمشيان ويعثران، فخشي أن يصيبهما الأذى من تعثرهما، فنزل إليهما، ووضعهما بين يديه على المنبر وقال: (صَدَقَ الله {أنما أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ} نَظَرْتُ إلى هَذَيْنِ الصَّبِيَّيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ فلم أَصْبِرْ حتى قَطَعْتُ حَدِيثِي وَرَفَعْتُهُمَا).

١٥- أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم مع الخدم: كان النبي صلى الله عليه وسلم رحيماً بالعبيد والخدم غاية الرحمة، وكان يوصي المسلمين بهم خيراً. والمواقف والمشاهد التي تدل لذلك وتؤكده كثيرة جداً منها:

كان زيد بن حارثة عبداً لخديجة، فأهدته للنبي صلى الله عليه وسلم بعد زواجهما، وقَدِم والده إلى النبي صلى الله عليه وسلم يطلب إعتاقه ويبدي استعداده لشرائه بالمال. فأخبره الرسول بأنه سيناديه ويخيره، فقَبِل والده بذلك، وسُرَّ به؛ لأنه لم يكن يساوره أية شكوك بأنه سيختاره والده وأهله، فناداه الرسول وخيره بين البقاء عنده أو اللحاق بوالده. فكان جوابه: ما أنا بالذي أختار عليك أحداً أبداً. قال والده: ويحك يا زيد أتختار العبودية على الحرية؟ وعلى أبيك وأهل بيتك؟ قال: نعم؛ قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً. فانصرف والده بعد أن أسلم، واطمأن على وضع ابنه. وتبناه الرسول صلى الله عليه وسلم، فأصبح ينادى بزيد بن محمد حتى نَزَلَ في الْقُرْآنِ: (ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هو أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ)

- كان النبي صلى الله عليه وسلم يوصي بحسن معاملة العبيد ويقول: (إِنَّ إِخْوَانَكُمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمْ الله تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كان أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، ولا تُكَلِّفُوهُمْ ما يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ ما يَغْلِبُهُمْ فَأَعِينُوهُمْ). وكان يأمر بمناداتهم بما يشعرهم بكرامتهم، فيقول: (لَا يَقُولَنَّ أحدكم عَبْدِي وَأَمَتِي كُلُّكُمْ عَبِيدُ اللَّهِ وَكُلُّ نِسَائِكُمْ إِمَاءُ اللَّهِ وَلَكِنْ لِيَقُلْ غُلَامِي وَجَارِيَتِي وَفَتَايَ وَفَتَاتِي).

- ويقول أنس رضي الله عنه: "خَدَمْتُ النبي صلى الله عليه وسلم عَشْرَ سِنِينَ فما قال لي أُفٍّ، ولا لِمَ صَنَعْتَ، ولا ألا صَنَعْتَ".

- وعن عَائِشَةَ رضي الله عنها قالت: "ما ضَرَبَ رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم شيئاً قَطُّ بيده، ولا امْرَأَةً، ولا خَادِماً، إلا أَنْ يُجَاهِدَ في سَبِيلِ اللَّهِ. وما نِيلَ منه شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ من صَاحِبِهِ إلا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ من مَحَارِمِ اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ عز وجل".

١٦- هديه صلى الله عليه وسلم في الرفق بالحيوان: خص النبي صلى الله عليه وسلم الحيوانات بأحكام شرعية تؤصل للرفق بها. يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ على كل شَيْءٍ، فإذا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وإذا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أحدكم شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ).

وكان بعض الفتيان يلجؤون على سبيل اللعب إلى نصب بهائم للرمي إليها، فرآهم بعض الصحابة، فأنكروا عليهم لما فيه من إيذاء وتعذيب لها يتنافى مع رحمة الإسلام.

من ذلك: أن أنس بن مالك رضي الله عنه دخل دار الحكم بن أيوب فوجد قَوْماً قد نَصَبُوا دَجَاجَةً يَرْمُونَهَا. فقال: "نهى رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنْ تُصْبَرَ الْبَهَائِمُ".

ومَرَّ عبد الله بن عُمَرَ بِفِتْيَانٍ من قُرَيْشٍ قد نَصَبُوا طَيْراً وَهُمْ يَرْمُونَهُ وقد جَعَلُوا لِصَاحِبِ الطَّيْرِ كُلَّ خَاطِئَةٍ من نَبْلِهِمْ، فلما رَأَوْا ابن عُمَرَ تَفَرَّقُوا. فقال ابن عُمَرَ: "من فَعَلَ هذا؟ لَعَنْ الله من فَعَلَ هذا. إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَعَنَ من اتَّخَذَ شيئاً فيه الرُّوحُ غَرَضاً".

وغفر الله لرجل في كلب سقاه. ودخلت امْرَأَةٌ النار في هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حتى مَاتَتْ جُوعاً.

وختاماً نقول: إن هذه الصور لم تكن سوى غيض من فيض عن أخلاق الحبيب محمد صلوات ربي وسلامه عليه، وإن المجلدات العظام لن تحيط بوصفها. إن البشر مهما قالوا، ومهما كتبوا عن أخلاقه صلى الله عليه وآله وسلم فلن يبلغوا ثناء الله عليه وعلى أخلاقه. إن إلهنا العظيم عندما يصف خلق الحبيب بأنه عظيم {وإنك لعلى خلُقٍ عظيم}، فماذا عسى أن يبلغ وصف البشر لأخلاقه صلى الله وسلم عليه.

غير أن الذي يجب أن لا نغفل عنه هو السعي في إحياء هذه الأخلاق النبوية في حياتنا، فنتحلى بها، وندعو إليها، خصوصاً في هذا الوقت الذي كادت الأخلاق الحميدة والمثل العليا أن تختفي من حياة الناس، وأصبحت المادة والمصلحة هي الغاية القصوى من الوجود، إن البشرية اليوم ظامئة، وهي بأمس الحاجة إلى إحياء هذه القيم السامية في واقع حياتها.

إننا حين نعرف الآخرين بمحمد عليه الصلاة والسلام، من هو؟ ولماذا نتخذه أسوة ومثلاً في حياتنا؟ نكون قد قدمنا لهم وللإسلام أعظم خدمة يمكن تقديمها اليوم.

أنتهى

المحاضرة الثامنة

أخلاق المهنة ومدى الحاجة إلى دراستها

*

تعريف المهنة: المِهنَة لغة: بكسر الميم وفتحها، والفتح أشهر. وتطلق على الخدمة والعمل، كما تطلق على الحِذق والمهارة فيها. وبمعنى الخدمة ورد قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (ما على أَحَدِكُمْ إن وَجَدَ أو ما على أَحَدِكُمْ إن وَجَدْتُمْ أَنْ يَتَّخِذَ ثَوْبَيْنِ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ سِوَى ثَوْبَيْ مِهْنَتِهِ). أي سوى ثوبي الخدمة والعمل، إذ إن ثوب الخدمة والعمل يكون مبتذلاً، ولا تتم المحافظة على نظافته ولا يصان. وبهذا المعنى أيضاً ما ورد عَنْ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، حين سئلت عن مَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ؟ فقَالَتْ: "كَانَ يَكُونُ فِي مَهْنَةِ أَهْلِهِ تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ، فَإِذَا حَضَرَتْ الصَّلَاةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ". وفي حديث آخر قالت: "كان يفعل مَا يَفْعَلُ أَحَدُكُمْ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ، يَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيَخِيطُ ثَوْبَهُ، وَيَرْقَعُ دَلْوَهُ"

وفي الاصطلاح المعاصر تطلق المهنة على: الحرفة التي تشتمل على مجموعة من المعارف العقلية ومجموعة من الممارسات والخبرات التدريبية، يؤديها الفرد من خلال ممارسته للعمل. أو هي: عمل يحتاج إلى معارف عقلية وخبرة ميدانية. كالطب، والهندسة، والتدريس، والمحاسبة.

مرادفات لفظ المهنة:

١- الحرفة: هناك ألفاظ قريبة في معناها من المهنة وربما التبست بها، كالحرفة والصنعة والعمل والوظيفة .. وفيما يلي بيان لمعانيها وأوجه الفرق بينها:

الحرفة: وهي لغةً: بالكسر؛ الصنعة أو وسيلة الكسب التي يَرْتزق منها المرء بصفة مستمرة، من زراعة أو صناعة أو تجارة، وتحتاج إلى تدريب قصير. وسميت بذلك لأنه مُنْحرِف إليها. ويقال حِرْفَتُهُ أنْ يفعل كذا: أي؛ دأبه وديدنه. والاحتراف: هو الاكتساب.

وليس للاحتراف معنى اصطلاحي خارج عن المعنى اللغوي. وغالباً ما تستعمل في الأعمال اليدوية سواء كانت بآلة أو بغير آلة. من ذلك ما ورد أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه لما استُخْلِف، وكان تاجراً، فأراد أن يخرج لتجارته، فقال له عمر: إلى أين؟ قال: أحترف لأهلي. قال: ومن لمصالح المسلمين وإدارة شؤونهم. ارجع ويُصرف لك من بيت المال حاجتك، فرجع فجعلوا له ألفين. فقال: زيدوني فإن لي عيالاً، وقد شغلتموني عن التجارة، فزادوه خمسمائة. وقال أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه "لَقَدْ عَلِمَ قَوْمِي أَنَّ حِرْفَتِي لَمْ تَكُنْ تَعْجِزُ عَنْ مَئُونَةِ أَهْلِي، وَشُغِلْتُ بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ، فَسَيَأْكُلُ آلُ أَبِي بَكْرٍ مِنْ هَذَا الْمَالِ، وَيَحتَرِفُ –أي أبو بكر- لِلْمُسْلِمِينَ فِيهِ". فعمل أبي بكر رضي الله عنه وأرضاه كان في التجارة، وقد سماه حرفة.

٢

- العمل:

العمل لغةً: يُطلق على المهنة، وعلى الفعل.

والفارق بينه وبين كلٍ من المهنة والحرفة:

أ- أن العمل قد يكون من الإنسان أو الحيوان، والحرفة لا تكون إلا من الإنسان. فالثور الذي يحرث الأرض يعمل، والطائر الذي يبني لنفسه عشاً يعمل، ولكن لا يُقال إنه محترفٌ أو ذو مهنة.

ب- العمل قد يكون ذهنياً، وقد يكون بدنياً، وأما الحرفة فالغالب أنها تُطلق على الأعمال اليدوية.

ج- العمل يستعمل للمرة الواحدة ولأكثر، ولا يحتاج إلى التدريب، بخلاف المهنة أو الحرفة فلا بد فيها من بعض التدريب والاستمرارية.

٣- الصنعة: الصنعة لغة: ترتيب العمل وإحْكامه على النحو الذي تعلمه، وبما يوصل إلى المقصود منه. فيقال للنجار صانع، ولا يقال للتاجر صانع؛ لان النجار قد سبق علمه بما يريد عمله من سرير أو باب، وكذا سبق علمه بالأسباب التي توصله إلى المقصود منه، وأما التاجر فلا يعلم إذا اتجر هل سيصل إلى ما يريده من الربح أم لا ؟.

الفرق بين الصنعة والعمل: يمكن تلخيص أوجه الفرق بين الاثنين فيما يأتي:

أ- العمل يُطلق على ما يصدر من الإنسان أو الحيوان، بينما لا تُطلق الصنعة إلا على ما صدر من الإنسان.

ب- العمل لا يتطلب العلم بما يعمل له، بخلاف الصنعة فإنها تتطلب العلم والمهارة، بل إن الصنعة لا تُطلق إلا على ما كان بإجادة، وفيه معنى الحرفة.

ج- الصنعة أخص والعمل أعم. وكل صنعةٍ عملٌ، وليس كل عملٍ صنعةً.

٤- الوظيفة: الوظيفة لغةً: ما يقدَّر من عمل أو طعام أو رزق في زمن معيَّن، وتأتي أيضاً بمعنى الخدمة المعيَّنة.

وفي الاصطلاح المعاصر: تطلق على وحدة من وحدات العمل، تتكون من عدة أنشطة مجتمعة مع بعضها في المضمون والشكل، ويمكن أن يقوم بها موظف واحد أو أكثر. كالمحاسبة في شركة مثلاً فإنها وظيفة، تحتوي على مجموعة من الأنشطة من جمع للبيانات والفواتير، وتصنيفها وإدخالها في الحاسوب، وجمعها، وإجراء المقابلة والمقاصة بين الوارد والصادر منها ثم إخراج النتيجة النهائية لليوم، ثم للشهر، ثم للسنة، وهكذا... وقد يكون للشركة محاسب واحد أو مجموعة من المحاسبين.

خصائص المهنة:

للمهنة جملة من الخصائص أهمها:

1. **تقديم خدمات أساسية ومفيدة للمجتمع.**
2. **حاجتها إلى الإعداد العلمي من خلال برامج ذات أهداف محددة وواضحة، ومن جهات علمية معترف بها.**
3. **لكل مهنة معارف ومهارات خاصة بها.**

٤. لكل مهنة قوانين وآداب تنظمها، وتحكم العمل بها.

٥. غالباً ما يوجد في وقتنا الحالي تجمع للعاملين بالمهنة يتحدث باسمها ويدافع عنها كالنقابات والجمعيات.

٦. لكل مهنة معالمها الواضحة التي تميزها عن غيرها من المهن.

الحكم الشرعي للمهنة:

إن من يقرأ في كتاب الله تعالى، أو في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، يجد أن الإسلام يحث على العمل، ويرفع من شأنه. كما أن من يقرأ سيرة النبي صلى الله عليه وسلم العطرة، أو غيره من الأنبياء، أو يقرأ في سير الخلفاء الراشدين، أو الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، أو في سير سلف الأمة وأئمتها، يجد أنهم جميعاً قد مارسوا مختلف المهن من تجارة ورعي وزراعة وخياطة وحدادة وغيرها. من ذلك مثلاً:

قول الله تعالى عن نبيه داود عليه السلام: [وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ] {الأنبياء:٨٠} واللبوس: الدروع.

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (ما أكل أحدٌ طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده).

وقوله: (ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طيرٌ أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة).

ويقول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: "كان آدم عليه السلام حراثاً (زراعاً)، وكان إدريس خياطاً، وكان نوح نجاراً، وكان هود تاجراً، وكان إبراهيم راعياً (وورد بزازاً أي تاجراً يبيع الملابس)، وكان داود زراداً (أي حداداً)، وكان سليمان خواصاً، وكان موسى (راعياً) أجيراً، وكان عيسى سياحاً، وعمل محمد صلى الله عليه وسلم في التجارة والرعي كما أخبر عن نفسه صلى الله عليه وسلم".

ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "إني لأرى الرجل فيعجبني، فأقول: هل له حرفة؟ فإن قالوا: لا؛ سقط من عيني". وفي هذا القدر كفاية، إذ ليس الغرض الحصر والاستقصاء.

فهذه النصوص -وغيرها مما في معناها كثير- تدل على مدى حث الشريعة على العمل، وعلى مدى إعلائه من شأنه.

تعريف أخلاق المهنة:

عرف بعض المعاصرين أخلاق المهنة بأنها: " مجموعة القيم والأعراف والتقاليد التي يتفق ويتعارف عليها أفراد مهنة حول ما هو خير وعدل في نظرهم، وما يعتبرونه أساساً لتعاملهم وتنظيم أمورهم وسلوكهم في إطار المهنة"

أو بعبارة أخرى: هي تلك التوجيهات النابعة من القيم والمبادئ التي يؤمن بها أفراد المجتمع، والتي ينبغي للشخص أن يتحلى بها أثناء ممارسته للمهنة.

<u>الفرق بين أخلاق المهنة وأنظمتها:</u>

تُعَرَّف أنظمة المهنة بأنها: تلك القوانين والتشريعات التي تحدد وتنظم عمل الممارسين للمهنة. وهذا يعني:

أ- أن أخلاق المهنة تهتم بما ينبغي فعله، وأما أنظمة المهنة فتهتم بما يجب فعله.

ب- إن من يخالف أخلاق المهنة يستحق اللوم والعتاب، وأما من يخالف أنظمتها فإنه يستحق العقوبة الزاجرة أيضاً، ولا يكتفى معه باللوم والعتاب.

مصادر أخلاق المهنة:

نصوص الشريعة كتاباً وسنةً هي مصدر التكاليف الشرعية عامةً بما فيها الجانب الأخلاقي، وأخلاق المهنة بصفتها تمثل جانباً من جوانب السلوك الأخلاقي، فإن مصدرها أيضاً هو الشرع، وقد جاءت الشريعة لتأخذ بيد الإنسان إلى الحياة الهانئة الطيبة الآمنة السعيدة، وليعيش في ظلال الإيمان الوارفة، ومن ثمَّ كانت تحثُّ على كل فضيلة، وعلى كل ما هو من مكارم الأخلاق، وعلى إتقان العمل، وعلى بذل النصيحة للآخرين والسعي فيما ينفعهم، وعلى مراقبة الله عز وجل في كل شؤون الحياة. ونصوص الشرع في ذلك كثيرة، نذكر منها على سبيل المثال: قول الله تعالى: [مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ]{النحل:٩٧} وقوله تعالى: [قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ، يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ] {المائدة:١٥-١٦}، فهذه الآيات وغيرها كثير، تؤكد أن الحياة السعيدة الهانئة الطيبة إنما هي في اتباع شرع الله، وليس غيره، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق).

وكون الشرع مصدر أخلاق المهنة لا يعني المنع من الاستفادة مما هو متوافر لدى الآخرين من غير المسلمين من أنظمة وتشريعات وإجراءات وأساليب نافعة ومفيدة في هذا الباب، ما لم تكن مصادمةً للشرع، فالحكمة ضالة المؤمن، وحيثما وجدها أخذها، وكان أحق بها.

مدى الحاجة إلى دراسة أخلاق المهنة:

لكل مهنة أخلاق وآداب عامة تحددها القوانين واللوائح الخاصة بها، ومن خلال مراعاتها تتم المحافظة على المهنة ومكانتها. وكثيراً ما تجمع هذه الآداب والأخلاق في عصرنا هذا في وثيقة واحدة، يطلق عليها ميثاق الشرف المهني.

ومن المعلوم أن مجموع المهن في المجتمع (كالتدريس والقضاء والطب والهندسة والمحاسبة وغيرها) هي الأداة المنفذة لأهداف وتطلعات أبناء المجتمع، فإذا فقد العاملون فيها آداب وأخلاق مهنتهم، كان ذلك نذير شؤم عليهم، وعلى مجتمعهم، وكان دليلاً على قرب نهايتهم، فكما يقول الشاعر:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ونظراً لاتساع سلطان العلم في عصرنا هذا وما رافقه من تقنيات مذهلة في معظم مجالات الحياة، ولأن مجالات العمل قد تضاعفت أضعافاً كثيرة عن العصور السابقة، فقد أصبحت الحاجة إلى أخلاق المهنة أكثر إلحاحاً، وأشد ضرورةً تلافياً لما يمكن أن يوجه إليه المهنة من الاستغلال السيئ من قبل بعض المنحرفين، ومرضى النفوس، فتصبح وسيلة للإفساد والتدمير والعبث

بمصير البشرية، ولا أدل على ذلك مما نجده في أيامنا هذه من العبث بالجينات الوراثية للمواد الغذائية (كالحبوب المعدلة وراثياً) وإدخال كثير من المواد الكيميائية في تركيبة الأغذية على الرغم من التحذيرات الطبية العالمية من كونها مواد مسرطنة أو ضارة بالإنسان أو بالبيئة، ومثل ذلك الاستنساخ والعبث بخِلْقة بعض الحيوانات وجعلها قطع غيار، والسعي بعد ذلك للعبث بخِلْقة الإنسان، وكذلك التنافس المحموم بين كثير من دول العالم في تصنيع القنابل النووية، إلى الصواريخ العابرة للقارات، إلى غزو الفضاء من خلال أقمار التجسس ... وهكذا.

وهذه الأمور التي هي على درجة كبيرة من الخطورة ليس على البشرية فحسب، بل على الكون برمته بكائناته الحية وجماداته، دفعت كثيراً من رجال العلم والفكر في العالم للدعوة إلى وضع مواثيق شرف أخلاقي تخص كل مهنة من المهن، ويكون من شأن هذا الميثاق حماية سمعة المهنة، والمحافظة عليها من الانحراف والاستغلال.

وقد تمت الاستجابة لهذه الدعوات ووُضِعتْ كثيرٌ من المواثيق في البلدان المختلفة، انطلاقاً من قيم البلد ومبادئه، ومن هنا كانت الحاجة إلى دراستها والوقوف عليها، وإن كان ذلك من خلال الخطوط العريضة لها.

صفات الميثاق الأخلاقي:

لكي يحقق الميثاق الأخلاقي أهدافه يجب أن يتصف بما يلي:

١. أن تكون مواده منسجمة مع قيم المجتمع ومبادئه.
٢. أن تكون مختصرة.
٣. أن تكون سهلة وواضحة.
٤. أن تكون معقولة ومقبولة من الناحية العملية.
٥. أن تكون شاملة.
٦. أن تكون إيجابية.

وسيكون لنا في المحاضرة الأخيرة بمشيئة الله وقفة مع أنموذج من هذه المواثيق.

آنتهى

المحاضرة التاسعة

الاستقامة المهنية

*

معنى الاستقامة : الاستقامة لغة: مشتقة من القيام، وتعني الثبات والدوام والملازمة والاستمرار على الشيء، كما أنها تفيد معنى الاعتدال والاستواء.

فمن الأول قوله تعالى: {كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ المَسْجِدِ الحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَّقِينَ} {التوبة:٧}، أي: فما استمر وثبت أولئك المشركون معكم على العهد، فاستمروا أنتم معهم واثبتوا.

ومن الثاني قول النبي صلى الله عليه وسلم للمأمومين خلفه في صلاة الجماعة: (أقيموا صفوفكم). أي اعتدلوا واستووا ولا تختلفوا.

والاستقامة المهنية في الاصطلاح : لا تخرج عن معناها اللغوي، أي أنها تفيد الاعتدال في أداء المهنة من جهة، وملازمة المهنة والوفاء بمصالحها من الطاعة والمشورة والصدق من جهة أخرى.

شروط الاستقامة المهنية: لكي تتحقق الاستقامة المهنية (أي الاعتدال والاستقرار والوفاء بمصالحها) لابد من توافر الشروط التالية:

١- حرص كل واحد من الطرفين على الآخر: أي أن كل واحد من طرفي العقد (العامل ورب العمل) مطالبٌ بالتحلي بالصفات الأخلاقية الحميدة التي من شأنها أن تغرس في نفس صاحبه الثقة والطمأنينة، وتشعره بحرصه على الاستمرار في التعاقد معه. وقد حث الشرع على هذا، ففي الحديث القدسي يروي النبي عليه الصلاة والسلام عن ربه عز وجل: "أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه، فإذا خانه خرجت من بينهما".

٢- مطاوعة الزملاء: فالثبات والاستقرار والاستمرار في المهنة لا يمكن أن يتحقق إلا إذا كان كل واحد يراعي مشاعر صاحبه، ويحترم رأيه، ويتنازل له عن بعض ما يراه، وفي بيان أهمية ذلك نجد النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم، يوصي به أَبَا مُوسى

الأشعري وَمُعَاذ بن جبل حين أرسلهما إِلَى الْيَمَنِ، فيقول لهما: "يَسِّرَا وَلاَ تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلاَ تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا ولا تختلفا".

٣- طاعة الرؤساء: إن طاعة الرؤساء في المهنة ضرورة لا بد منها، وإلا كانت الفوضى، وكان الاضطراب، وكان الإضرار بالمهنة واستقرارها ومصالحها، ومن ثمَّ نجد أن القرآن الكريم يأمر بإطاعة ولاة الأمر فيقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ}{النساء:٥٩}.

٤- عدم التغيب عن العمل إلا في حالات الضرورة: إذ التغيب عن العمل يضر به، ويتنافى مع مصالحه بلا شك، والعقود أو الأنظمة والقوانين تعاقب على ذلك، غير أن الفرد قد يتغيب لظروف خاصة تواجهه، ويكون معذوراً بها، والمطلوب منه هنا أن لا يتوسع في ذلك، ويجعل مصلحة العمل نصب عينيه، لأنه من مقتضى الوفاء بالعقود، والله سبحانه وتعالى يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالعُقُودِ}{المائدة:١}.

٥- الالتزام بمنهج الشورى: الالتزام بمنهج الشورى وخصوصاً في الوظائف التي تصنع السياسات المهنية، وتضع الخطط، مطلب ضروري للاستقامة المهنية، وإلا كان الوقوع في شَرَك الاستبداد بالرأي، وتحكيم العقل الواحد، والرؤية الواحدة، وهو ما ينعكس سلباً على مصلحة العمل واستقراره، ومن هنا فقد أخبرنا الله أن الشورى من صفات المجتمع المسلم، تنبيهاً إلى أهمية الالتزام بها، فقال تعالى: {وأمرهم شورى بينهم} {الشورى: ٣٨}.

بل إن الله سبحانه أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالشورى، فقال تعالى : {وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ} {آل عمران:١٥٩}

وإذا كان النبي وهو المعصوم والمسدد بالوحي مطالباً بالشورى، فكيف بغيره؟!. لا شك أنه مطالبٌ به من باب أولى.

٦- الالتزام بالصدق: الالتزام بالصدق ضرورة لابد منها لتحقيق الاستقامة المهنية، إذ لا يمكن للمهنة أن تستقر وتستمر وتتحقق مصالحها من غير الاتصاف بالصدق، قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}{التوبة:١١٩}.

التوجيه الفقهي لخلق الاستقامة المهنية:

- ما أسلفناه في حديثنا عن الطهارة المهنية من ضرورة توافر الحد الأدنى منها يقال هنا أيضاً وفي كل خصال أخلاق المهنة، فالحد الأدنى منها لا بد منه، وقد نصت عليه القوانين والعقود، فخرجت من مجرد خصال أخلاقية إلى واجبات ملزمة، يترتب على الإخلال بها مسؤولية قضائية. غير أن القوانين والعقود لن تحيط بكل خصال الاستقامة المهنية، لأن العقود تستحدث باستمرار والوقائع تتجدد دائماً، ومن ثمَّ كانت الحاجة إلى المزيد من هذا الخلق، بحيث يتحقق الغرض منه.
- وننبه هنا أيضاً إلى ما أسلفناه في خلق الطهارة المهنية من أن:

١- الاستقامة المهنية تختلف في بعض جوانبها من مهنة إلى أخرى، أي أن الاستقامة المهنية المطلوبة من القاضي تختلف في بعض جوانبها عن المطلوبة من الطبيب أو التاجر أو المدرس.

٢- كما أننا لا نبحث هنا إلا في الاستقامة ذات العلاقة بالمهنة وما يؤثر فيها، ولا شأن لنا بعلاقاته الأسرية أو الاجتماعية.

أدلة الاستقامة المهنية:

دلت آيات وأحاديث كثيرة على طلب هذا الخلق من المسلم من ذلك:

١- قول الله تعالى: [فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ] {هود:١١٢} وجه الدلالة في الآية أنها تطالب الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين بالاتصاف بخلق الاستقامة صراحة، وهي عامة، فيدخل فيها الاستقامة المهنية أيضاً؛ لأنها فرع عنها.

٢- قوله تعالى في صفات عباد الرحمن: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً} {الفرقان:٦٧} أي أن هؤلاء العباد المؤمنين الصالحين الواقفين عند حدود الشرع يتصفون بالاعتدال حتى في حالة الإنفاق في أوجه البِر والخير، ويتجنبون الإفراط والتفريط لمنافاتها لخلق الاستقامة، وإذا كان هذا الاعتدال مطلوباً في الإنفاق في سبل الخير –مع حث الشرع عليه- فلأن يكون مطلوباً في غيره من الأمور المباحة من باب أولى.

٣- قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} {التوبة:١١٩}

وقد سبق ذكره في الشروط، وكذا ما ورد في طاعة ولاة الأمر، والتزام منهج الشورى، وغيرها من الآيات التي تحث على هذه القيم الأخلاقية كثير.

يضاف إليها أنها جميعاً قد تأكدت بأحاديث شريفة واردة في معناها تدل على طلب تلك الخصال الخلقية من ذلك:

١- قول الرسول صلى الله عليه وسلم لسُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ الثَّقَفِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين جاء إليه يقول: يَا رَسُولَ اللهِ، قُلْ لِي فِي الإِسْلامِ قَوْلا لا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَداً بَعْدَكَ. قَالَ: "قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ" فقد أمره الرسول صلى الله عليه وسلم بالاستقامة من غير تخصيص بجانب معين من جوانب الحياة، فيكون شاملاً ومستغرقاً لجميعها.

٢- قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "اسمعوا وأطيعوا، وإن أُمِّرَ عليكم عبد حبشي ما أقام فيكم كتاب الله". وهو يدل على وجوب طاعة الرئيس، وإن لم يكن يراه أهلاً لذاك المنصب.

مظاهر الاستقامة المهنية عند الفقهاء:

تكلم الفقهاء عن مظاهر الاستقامة في بعض المهن كالحُكْمِ والقضاء والمعاملات المالية، وحذروا من الخصال التي تتنافى مع خلق الاستقامة المهنية، وفيما يلي ذكر لبعض هذه المظاهر:

١- <u>العدل في المعاوضات المالية:</u>

الأصل في المعاوضات المالية أنها تقوم على التراضي بين طرفي العقد، والأصل في الطرفين أنهما عاقلان بالغان راشدان يدركان مصلحتهما، ومن ثمَّ فإن الشرع يتركهما لإرادتهما واتفاقهما، ولا يتدخل بينهما، إذ ليست مصلحة أحد الطرفين بأولى من الآخر، إلا أن بعض الأشخاص قد يتعرض للخديعة أو الاستغلال من الطرف الآخر لظروف خاصة، فعندها يتدخل الشرع ليحمي الطرف الضعيف، ومن هذا الباب ما يحصل للمسترسل. والمسترسل هو: الشخص الذي يتصف بسلامة السريرة، ويجهل قيمة السلعة، ولا يحسن المساومة، فيطمئن إلى صدق البائع، ويستسلم له، فيستغل البائع ذلك فيه، فيبيعه بغبن فاحش (أي بزيادة كبيرة لا تكون عادة بين المتبايعين، وإنما تحصل هنا استغلالاً لحالة المشتري واسترساله) فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم في النهي عن ذلك: "غبن المسترسل حرام"، وفي بعض الروايات: "ربا". أي أن خداعه واستغلاله حرام شرعاً، وأن تلك الزيادة ربا، ولا تحل له.

وقد ورد أن أناساً أخبروا النبي صلى الله عليه وسلم عن رجل يُستغل ويُغْبَنُ (أي يُخدع) في بيعه، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : "إذا بايعت فقُلْ لَا خِلَابَةَ"، والخلابة هي الخديعة. أي أني اشتريت منك بشرط أن لا تكون قد خدعتني، فإذا تبين أنك قد

خدعتني، فلي الخيار في إبطاله. ولا شك أن هذا الخداع وهذا الاستغلال منافٍ للأخوة الإيمانية، وخارج عن العدل الذي جاء به الشرع، ومصادم لخُلق الاستقامة المهنية.

٢- العدل في المكيال والميزان:

قال تعالى: {إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ...}. فالمطلوب هو العدل بإطلاق، في جميع مجالات الحياة، ومع جميع الناس، مهما اختلف الزمان أو المكان أو الجنس أو الدين. ومن ذلك العدل في المكيال والميزان، فقد ورد التأكيد عليه في أكثر من موضع في القرآن الكريم، لأهمية المال وخطورته، وتطلع النفوس إلى المزيد منه، بل إن سورة من سور القرآن الكريم سميت باسم المطففين، أي المتلاعبين بالمكاييل والموازين، فحذرت من هذا الفعل أشد التحذير، وخوفتهم من المصير الأليم الذي ينتظرهم في القيامة. قال تعالى: {ويل للمطففين، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون، ليوم عظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين} فالعدل من خلق الاستقامة المهنية، والتطفيف في المكاييل والموازين ينافيه، ويجب الابتعاد عنه.

٣- الالتزام بمتطلبات المهنة وبأدائها على وجهها المطلوب:

أجمع الفقهاء على وجوب الالتزام بأداء المهنة على وجهها المعروف في صور المعاوضات المالية، وعدم الإخلال بمتطلباتها اللازمة؛ لقولة تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالعُقُودِ} {المائدة:١} ولا يخفى ما لهذا من أثر طيب وإيجابي على تحقيق الثبات والدوام والاستقرار للمعاملات، وهي من خصال خلق الاستقامة المهنية.

٤- الشورى:

ويمكن تعريف الشورى بأنها مراجعة الآخرين من أهل الاختصاص والخبرة؛ لأخذ رأيهم في الموضوع الذي ينظر فيه، ثم العمل بموجبه.

وهي من خصال خلق الاستقامة المهنية، ومطلوبة بصورة أكيدة كما أسلفنا في الشروط. قال تعالى مخاطباً نبيه: {وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله}، وقال تعالى: {وأمرهم شورى بينهم}، ومن يقرأ في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم أو سِيَرِ خلفائه الراشدين رضوان الله عليهم يقف على صور كثيرة منها، ومن وقائع متنوعة في السلم والحرب، في القضاء والإدارة والتشريع، وكلها تجسد مبدأ الشورى الذي كان يلتزم به الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون رضوان الله عليهم في حياتهم.

وفي هذا القدر من الأمثلة كفاية للتدليل على أهمية هذا الخلق في الدين والدنيا.

أنتهى

المحاضرة العاشرة

الاستقامة المهنية

*

معنى الاستقامة : الاستقامة لغة: مشتقة من القيام، وتعني الثبات والدوام والملازمة والاستمرار على الشيء، كما أنها تفيد معنى الاعتدال والاستواء.

فمن الأول قوله تعالى: {كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ المَسْجِدِ الحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَّقِينَ} {التوبة:٧}، أي: فما استمر وثبت أولئك المشركون معكم على العهد، فاستمروا أنتم معهم واثبتوا.

ومن الثاني قول النبي صلى الله عليه وسلم للمأمومين خلفه في صلاة الجماعة: (أقيموا صفوفكم). أي اعتدلوا واستووا ولا تختلفوا.

والاستقامة المهنية في الاصطلاح : لا تخرج عن معناها اللغوي، أي أنها تفيد الاعتدال في أداء المهنة من جهة، وملازمة المهنة والوفاء بمصالحها من الطاعة والمشورة والصدق من جهة أخرى.

شروط الاستقامة المهنية: لكي تتحقق الاستقامة المهنية (أي الاعتدال والاستقرار والوفاء بمصالحها) لابد من توافر الشروط التالية:

١- حرص كل واحد من الطرفين على الآخر: أي أن كل واحد من طرفي العقد (العامل ورب العمل) مطالبٌ بالتحلي بالصفات الأخلاقية الحميدة التي من شأنها أن تغرس في نفس صاحبه الثقة والطمأنينة، وتشعره بحرصه على الاستمرار في التعاقد معه. وقد حث الشرع على هذا، ففي الحديث القدسي يروي النبي عليه الصلاة والسلام عن ربه عز وجل: "أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه، فإذا خانه خرجت من بينهما".

٢- مطاوعة الزملاء: فالثبات والاستقرار والاستمرار في المهنة لا يمكن أن يتحقق إلا إذا كان كل واحد يراعي مشاعر صاحبه، ويحترم رأيه، ويتنازل له عن بعض ما يراه، وفي بيان أهمية ذلك نجد النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم، يوصي به أَبَا مُوسى الأشعري وَمُعَاذ بن جبل حين أرسلهما إِلَى الْيَمَنِ، فيقول لهما: "يَسِّرَا وَلاَ تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلاَ تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا ولا تختلفا".

٣- طاعة الرؤساء: إن طاعة الرؤساء في المهنة ضرورة لا بد منها، وإلا كانت الفوضى، وكان الاضطراب، وكان الإضرار بالمهنة واستقرارها ومصالحها، ومن ثمَّ نجد أن القرآن الكريم يأمر بإطاعة ولاة الأمر فيقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ}{النساء:٥٩}.

٤- عدم التغيب عن العمل إلا في حالات الضرورة: إذ التغيب عن العمل يضر به، ويتنافى مع مصالحه بلا شك، والعقود أو الأنظمة والقوانين تعاقب على ذلك، غير أن الفرد قد يتغيب لظروف خاصة تواجهه، ويكون معذوراً بها، والمطلوب منه هنا أن لا يتوسع في ذلك، ويجعل مصلحة العمل نصب عينيه، لأنه من مقتضى الوفاء بالعقود، والله سبحانه وتعالى يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالعُقُودِ}{المائدة:١}.

٥- الالتزام بمنهج الشورى: الالتزام بمنهج الشورى وخصوصاً في الوظائف التي تصنع السياسات المهنية، وتضع الخطط، مطلب ضروري للاستقامة المهنية، وإلا كان الوقوع في شَرَك الاستبداد بالرأي، وتحكيم العقل الواحد، والرؤية الواحدة، وهو ما ينعكس سلباً على مصلحة العمل واستقراره، ومن هنا فقد أخبرنا الله أن الشورى من صفات المجتمع المسلم، تنبيهاً إلى أهمية الالتزام بها، فقال تعالى: {وأمرهم شورى بينهم} {الشورى: ٣٨}.

بل إن الله سبحانه أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالشورى، فقال تعالى : {وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ} {آل عمران:١٥٩}

وإذا كان النبي وهو المعصوم والمسدد بالوحي مطالباً بالشورى، فكيف بغيره؟!. لا شك أنه مطالبٌ به من باب أولى.

٦- الالتزام بالصدق: الالتزام بالصدق ضرورة لابد منها لتحقيق الاستقامة المهنية، إذ لا يمكن للمهنة أن تستقر وتستمر وتتحقق مصالحها من غير الاتصاف بالصدق، قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}{التوبة:١١٩}.

التوجيه الفقهي لخلق الاستقامة المهنية: ما أسلفناه في حديثنا عن الطهارة المهنية من ضرورة توافر الحد الأدنى منها يقال هنا أيضاً وفي كل خصال أخلاق المهنة، فالحد الأدنى منها لا بد منه، وقد نصت عليه القوانين والعقود، فخرجت من مجرد خصال أخلاقية إلى واجبات ملزمة، يترتب على الإخلال بها مسؤولية قضائية. غير أن القوانين والعقود لن تحيط بكل خصال الاستقامة المهنية، لأن العقود تستحدث باستمرار والوقائع تتجدد دائماً، ومن ثمَّ كانت الحاجة إلى المزيد من هذا الخلق، بحيث يتحقق الغرض منه.

- وننبه هنا أيضاً إلى ما أسلفناه في خلق الطهارة المهنية من أن:

١- الاستقامة المهنية تختلف في بعض جوانبها من مهنة إلى أخرى، أي أن الاستقامة المهنية المطلوبة من القاضي تختلف في بعض جوانبها عن المطلوبة من الطبيب أو التاجر أو المدرس.

٢- كما أننا لا نبحث هنا إلا في الاستقامة ذات العلاقة بالمهنة وما يؤثر فيها، ولا شأن لنا بعلاقاته الأسرية أو الاجتماعية.

أدلة الاستقامة المهنية: دلت آيات وأحاديث كثيرة على طلب هذا الخلق من المسلم من ذلك:

١- قول الله تعالى: [فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ] {هود:١١٢} وجه الدلالة في الآية أنها تطالب الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين بالاتصاف بخلق الاستقامة صراحة، وهي عامة، فيدخل فيها الاستقامة المهنية أيضاً؛ لأنها فرع عنها.

٢- قوله تعالى في صفات عباد الرحمن: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً} {الفرقان:٦٧} أي أن هؤلاء العباد المؤمنين الصالحين الواقفين عند حدود الشرع يتصفون بالاعتدال حتى في حالة الإنفاق في أوجه البِر والخير، ويتجنبون

الإفراط والتفريط لمنافاتها لخلق الاستقامة، وإذا كان هذا الاعتدال مطلوباً في الإنفاق في سبل الخير –مع حث الشرع عليه- فلأن يكون مطلوباً في غيره من الأمور المباحة من باب أولى.

٣- قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} {التوبة:١١٩}

وقد سبق ذكره في الشروط، وكذا ما ورد في طاعة ولاة الأمر، والتزام منهج الشورى، وغيرها من الآيات التي تحث على هذه القيم الأخلاقية كثير.

يضاف إليها أنها جميعاً قد تأكدت بأحاديث شريفة واردة في معناها تدل على طلب تلك الخصال الخلقية من ذلك:

١- قول الرسول صلى الله عليه وسلم لسُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ الثَّقَفِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين جاء إليه يقول: يَا رَسُولَ اللهِ، قُلْ لِي فِي الإِسْلامِ قَوْلا لا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَداً بَعْدَكَ. قَالَ: "قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ" فقد أمره الرسول صلى الله عليه وسلم بالاستقامة من غير تخصيص بجانب معين من جوانب الحياة، فيكون شاملاً ومستغرقاً لجميعها.

٢- قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "اسمعوا وأطيعوا، وإن أُمِّرَ عليكم عبد حبشي ما أقام فيكم كتاب الله". وهو يدل على وجوب طاعة الرئيس، وإن لم يكن يراه أهلاً لذاك المنصب.

مظاهر الاستقامة المهنية عند الفقهاء: تكلم الفقهاء عن مظاهر الاستقامة في بعض المهن كالحُكْمِ والقضاء والمعاملات المالية، وحذروا من الخصال التي تتنافى مع خلق الاستقامة المهنية، وفيما يلي ذكر لبعض هذه المظاهر:

١- <u>العدل في المعاوضات المالية:</u>

الأصل في المعاوضات المالية أنها تقوم على التراضي بين طرفي العقد، والأصل في الطرفين أنهما عاقلان بالغان راشدان يدركان مصلحتهما، ومن ثمَّ فإن الشرع يتركهما لإرادتهما واتفاقهما، ولا يتدخل بينهما، إذ ليست مصلحة أحد الطرفين بأولى من الآخر، إلا أن بعض الأشخاص قد يتعرض للخديعة أو الاستغلال من الطرف الآخر لظروف خاصة، فعندها يتدخل الشرع ليحمي الطرف الضعيف، ومن هذا الباب ما يحصل للمسترسل. والمسترسل هو: الشخص الذي يتصف بسلامة السريرة، ويجهل قيمة السلعة، ولا يحسن المساومة، فيطمئن إلى صدق البائع، ويستسلم له، فيستغل البائع ذلك فيه، فيبيعه بغبن فاحش (أي بزيادة كبيرة لا تكون عادة بين المتبايعين، وإنما تحصل هنا استغلالاً لحالة المشتري واسترساله) فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم في النهي عن ذلك: "غبن المسترسل حرام"، وفي بعض الروايات: "ربا". أي أن خداعه واستغلاله حرام شرعاً، وأن تلك الزيادة ربا، ولا تحل له.

وقد ورد أن أناساً أخبروا النبي صلى الله عليه وسلم عن رجل يُستغل ويُغْبَنُ (أي يُخدع) في بيعه، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : "إذا بايعت فقُلْ لَا خِلَابَةَ"، والخلابة هي الخديعة. أي أني اشتريت منك بشرط أن لا تكون قد خدعتني، فإذا تبين أنك قد خدعتني، فلي الخيار في إبطاله. ولا شك أن هذا الخداع وهذا الاستغلال منافٍ للأخوة الإيمانية، وخارج عن العدل الذي جاء به الشرع، ومصادم لخُلق الاستقامة المهنية.

٢- <u>العدل في المكيال والميزان:</u>

قال تعالى: {إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ...}. فالمطلوب هو العدل بإطلاق، في جميع مجالات الحياة، ومع جميع الناس، مهما اختلف الزمان أو المكان أو الجنس أو الدين. ومن ذلك العدل في المكيال والميزان، فقد ورد التأكيد عليه في أكثر من موضع في القرآن الكريم، لأهمية المال وخطورته، وتطلع النفوس إلى المزيد منه، بل إن سورة من سور القرآن الكريم سميت باسم المطففين، أي المتلاعبين بالمكاييل والموازين، فحذرت من هذا الفعل أشد التحذير، وخوفتهم من المصير الأليم الذي ينتظرهم في القيامة. قال تعالى: {ويل للمطففين، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون، ليوم عظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين} فالعدل من خلق الاستقامة المهنية، والتطفيف في المكاييل والموازين ينافيه، ويجب الابتعاد عنه.

٣- <u>الالتزام بمتطلبات المهنة وبأدائها على وجهها المطلوب:</u>

أجمع الفقهاء على وجوب الالتزام بأداء المهنة على وجهها المعروف في صور المعاوضات المالية، وعدم الإخلال بمتطلباتها اللازمة؛ لقولة تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَوْفُوا بِالعُقُودِ} {المائدة:١} ولا يخفى ما لهذا من أثر طيب وإيجابي على تحقيق الثبات والدوام والاستقرار للمعاملات، وهي من خصال خلق الاستقامة المهنية.

٤- <u>الشورى:</u>

ويمكن تعريف الشورى بأنها مراجعة الآخرين من أهل الاختصاص والخبرة؛ لأخذ رأيهم في الموضوع الذي ينظر فيه، ثم العمل بموجبه.

وهي من خصال خلق الاستقامة المهنية، ومطلوبة بصورة أكيدة كما أسلفنا في الشروط. قال تعالى مخاطباً نبيه: {وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله}، وقال تعالى: {وأمرهم شورى بينهم}، ومن يقرأ في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم أو سِيَرِ خلفائه الراشدين رضوان الله عليهم يقف على صور كثيرة منها، ومن وقائع متنوعة في السلم والحرب، في القضاء والإدارة والتشريع، وكلها تجسد مبدأ الشورى الذي كان يلتزم به الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون رضوان الله عليهم في حياتهم.

وفي هذا القدر من الأمثلة كفاية للتدليل على أهمية هذا الخلق في الدين والدنيا.

أنتهى

المحاضرة الحادي عشر

.....

*

أسئلة اختبار الأخلاق الإسلامية و أداب المهنة الفصل الثاني لعام ١٤٣٣/ ١٤٣٤ هـ

١:- تقول عائشة رضي الله عنها : ما ضرب رسول الله علية وسلم شيئاً قط بيده ، إلا أن يكون :

أ- مع أهل بيته ب_ في الجهاد سبيل الله ج- مع خدمه د- جميعها صحيحه

٢:- قال رسول الله صلى الله علية وسلم (رفع القلم عن ثلاث ... عن :

أ- النائم حتي يستيقظ . ب-المجنون حتى يفيق ج- الصبي حتى يحتلم د- جميعها صحيحه

٣:- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، من مهام :

أ- ولاة الأمور ب- العلماء ج- الحكام د- الأمه كلها

٤:-ما يوصف بأنه صورة الإنسان الظاهرة هو :

أ- الغرائز ب- الخُلُق (بضم الخاء واللام). ج- الخَلْق (بفتح الخاء وسكون اللام) د- الفطرة

٥:- ما يحتاج إلى معارف عقلية و خبرة ميدانية كالهندسة و المحاسبة يسمى :

أ- الحرفة ب- الصنعة ج- الوظيفة د- جميعها خطاء .

٦:- كان الخليفة الراشدي أبو بكر الصديق رضي الله عنه يعمل في :

أ- الحدادة ب- الزراعة ج-النجارة د- التجارة

٧:- يقول الرسول صلى الله علية وسلم (الحلف الكاذب منفقة للسلعة ، ممحقةُ :

أ- للمال ب- للعمر ج- للبركة د- جميعها خطأ .

٨:- عبارة : " لقد علم قومي أن حرفتي لم تكن تعجز عن منونة أهلي ، و شُغلت بأمر المسلمين " قائلها :

أ- أبو بكر الصديق رضي الله عنه ب- عمر رضي الله عنه ج- عثمان رضي الله عنه د-جميعها خطأ

٩:- الأفعال الخُلقية هي التي تصدر من الإنسان :

أ- بتكلف ومجاهدة نفس ب- من غير حاجة إلى فكر و روية ج- كلاهما صحيح د- كلاهما خطاء

١٠:- كان النبي صلى الله علية وسلم يتعبد ربه حتى تتفطر قدماه ، فإذا سئل لم هذا وقد غفر لك أجاب أفلا أكون عبداً :

أ- شكوراً ب- مؤمناً ج- صبوراً د- جميعها صحيح

١١:- قول النبي صلى الله علية وسلم : " من يستعفف يعفه الله " يدل على مدى تأثير:

أ- التدريب العملي ب- الضغط الاجتماعي ج- القدوة الحسنة د- البيئة الصالحة

١٢:- قولنا :" تكليف بتشريع خُلقي " هو تعريف لـ :

أ- المسؤولية الخُلقية ب- الجزاء الخُلقي ج- الإلزام الخُلقي د- جميعها خطأ

١٣:- حث الاسلام على الحكمة ، و اعتبرها فضيلة ، وهي تأتي بين رذيلتين هما :

أ- الإسراف و التقتير ب- الشره و الخمود ج- التهور و الجبن د- الخب و البله

١٤:- استهلاك الممرض أضعاف ما يحتاج من الشاش و المراهم لمعالجة مريض سفاهة و يخالف خُلُق :

أ- الطهارة المهنية ب- التعاون المهني ج- المحبة المهنية د- الأمانة المهنية

١٥:-يقول الرسول صلى الله علية وسلم (الحياء و الإيمان قرناء جميعاً فإذا رفع أحدهما ..) :

أ- سَلِمَ الأخر ب- قوي الأخر ج- رُفع الأخر د- ضعف الأخر

١٦:- يقول رسول الله صلى الله علية وسلم : (غَبْنُ المسترسِل حرام) و المسترسل هو الذي :

أ- يتصف بسلامة السريرة و يستسلم للبائع ب- يجهل قيمة السلعة و لا يحسن المساومة

ب- ج- يطمئن إلى صدق البائع و يستسلم له د- جميعها صحيح

١٧:-ورد في الحث على المنافسة الشريفة قول النبي صلى الله علية وسلم :

أ- من قتل قتيلاً فله سلبه ب- والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخية

ج- انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً د- إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه

١٨:- من العوامل الداخلية التي تعين على تحقيق الالتزام الخُلقي :

أ- المجتمع ب- الضمير ج- السلطة الحاكمة د- جميعها خطاء

١٩:- من خصائص المسؤولية الخلقية في الاسلام :

أ- أنها شخصية ب- تلزم فوق الطاقة ج- كلاهما صحيح د- كلاهما خطأ

٢٠:- من النصوص الشرعية التي تدل لخلق الأمانة المهنية :

أ- (أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك) ب- (من حدث في مجلس بحديث فالتفت فهي أمانه)

ج- (و إذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً فلما نبأت به و أظهره الله عليه) د- جميعها صحيح

٢١:- منع الشرع من ادعاء كثرة الطالبين للمهنه و الأصل الفقهي الذي يتأسس عليه ذلك هو تحريم :

أ- التصرية ب- النجش ج- كلاهما صحيح د- كلاهما خطأ

٢٢:- الشجاعة خلق كريم ، و يأتي وسطاً بين رذيلتي ، هما :

أ- التهور و الجبن ب- العفة و الخمود ج- التعقل و التهور د- جميعها خطأ

٢٣:-موضوع علم الأخلاق هو :

أ- الغرائز ب- الدوافع ج- ما يوصف بالخير و الشر د- جميعها صحيح

٢٤:- قول النبي صلى الله علية وسلم : (لا يخطب أحدكم على خطبة أخية) يدل على :

أ- النهي عن المنافسة غير الشريفة ب- النهي عن ما ينافي حقوق الأخوة و التعاون

ج- النهي عن ما يوغر الصدور و يجلب الحقد و الكراهية د- جميعها صحيح

٢٥:- التلاعب بالمكاييل و الموازين ينافي العدل و يتنافى مع خُلق :

أ- التعاون المهني ب- الاستقامة المهنية ج- الطهارة المهنية د- المحبة المهنية

٢٦:-قول النبي صلى الله علية وسلم :(كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته) على :

أ- المسؤولية الأخلاقية ب- المسؤولية الشخصية ج- المسؤولية التقصيرية د- جميعها صحيح

٢٧:- الأخلاق الإسلامية ثابته لارتباطها :

أ- بالفطرة البشرية ب- بالدين ج- كلاهما صحيح د- كلاهما خطأ

٢٨:- إبطال العقد برضا الطرفين مراعاة لظروف أحدهما بعد لزومه يسمى الإقالة وهي من خصال خُلق :

أ- التعاون المهني ب- الطهارة المهنية ج- المحبة المهنية د- جميعها خطأ

٢٩:- من أدلة السنة المطهرة في الطهارة المهنية قول النبي صلى الله علية وسلم :

أ:-" من غش فليس منا " ب- " صنع الله الذي أتقن كل شيء " ج- " ولا تزر وازرة وزر أخرى " د- " إنما الأعمال بالنيات "

٣٠:- الشورى مطلوبة مع زملاء الهنة ، وهي من خصال خُلق :

أ- المحبة المهنية ب- التعاون المهني ج- الطهارة المهنية د- الاستقامة المهنية

٣١:- ترك حلب الدابة مدة من الزمن حتى يجتمع قدرٌ كبيرً من الحليب في ضرعها يسمى :

أ- النجش ب- التصرية ج- الإقالة د- التطفيف

٣٢:- وضع أصباغ خادعة تخفي حقيقة حالة السلعة ، تدليسُ و غشٌ ، ويخالف خُلق :

أ- الطهارة المهنية ب- التعاون المهني ج- الأمانة المهنية د-

٣٣:- تحقيق التوادد و التراحم و التعاطف تجاه المهنة من خصال خُلق :

أ- الطهارة المهنية ب- التعاون المهني ج- الاستقامة المهنية د- المحبة المهنية

٣٤:- قول الرسول الله صلى الله علية وسلم : (من سرته حسنته و ساءته سيئته فذلك المؤمن) يدل على :

أ- الإلزام الخلقي ب- المسؤولية الخلقية ج- الجزاء الخلقي المتمثل بالشعور النفسي د- العقوبات الشرعية

٣٥:- من شروط المسؤولية الخلقية في الإسلام :

أ- كون العمل مما يطلق ب- الأهلية ج- العلم بالعمل د- جميعها صحيح

٣٦:- العقوبات التي أقرتها الشريعة الإسلامية في حق من يتعدٌ حدود الله تسمى :

أ- حداً ب- تعزيزاً ج-كلاهما صحيح د- كلاهما خطأ

٣٧:- قال النبي صلى الله علية وسلم لأشج عبد القيس (إن فيك خصلتين ... الحلم و الأناة) والحلم هو :

أ- ترك العجلة ب- العقل ج- كلاهما صحيح د- كلاهما خطأ

٣٨:- السلوك الذي يؤدي إلى السعادة و الإقبال على الحياة يعتبر سلوكاً أخلاقياً ، ومن ثَمٌ حث الإسلام ...

أ- العلم ب- صلة الرحم ج- الرضا بقضاء الله د- جميعها صحيح

٣٩:- النبي الذي قال الله فيه :{ وعلمناه صنعة لبُوس لكُم لتحصنكم من بأسكم } هو :

أ- إبراهيم علية السلام ب- إدريس علية السلام ج- داود علية السلام د- أيوب علية السلام

٤٠:- يقول النبي صلى الله علية السلام :(لا تطروني كما أطرت ...:

أ- النصارى ابن مريم ب- الفرس كسراها ج- الروم عظماءها د-

٤١:- أمر الإسلام بالعدل في العطية بين :

أ- الأولاد ب- الوالدين ج- الإخوة د- جميعها صحيح

٤٢:- قال رسول الله صلى الله علية وسلم : (من كان يؤمن بالله و اليوم الآخر :

أ- فليكرم ضيفه ب- فليكرم جاره ج- كلاهما صحيح د- كلاهما خطأ

٤٣:- لعن رسول الله { صلى الله علية وسلم } من اتخذ شيئاً فيه الروح :

أ- غرضاً ب- طعاماً ج- سلاحاً د- مركباً

٤٤:- السلوك الذي يضاد الحياة ، و يجعل الإنسان متشائماً يرفضه الإسلام ، ومن ثمَ حارب :

أ- الانتحار ب- تعاطي المسكرات ج- تعاطي المخدرات د- جميعها صحيح

٤٥ :- التزام الرشدَ في التصرف من غير إسراف أو استغلال من شروط تحقق خُلق :

أ- الاستقامة المهنية ب- التعاون المهني ج- الأمانة المهنية د- الطهارة المهنية

٤٦:- قال رسول الله صلى الله علية وسلم : (كل معروف صدقة ...ومن المعروف أن تلقى أخاك :

أ- بوجه طلق ب- بالترحيب ج- بالمعانقة و التقبيل د- جميعها صحيحه

٤٧:- ما يُضفي القدسية على النظام الخلقي الإسلامي هو :

أ- الأساس الاعتقادي ب- الأساس الواقعي ج- الأساس العلمي د- جميعها صحيح

٤٨:- القائل : " إن الله يقيم الدولة العادلة و إن كانت كافرة ، ولا يقيم الدولة الظالمة و إن كانت مسلمة ..

أ- عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ب- عمر بن الخطاب رضي الله عنه

ج- ابن تيمية رضي الله عنه د- العز بن عبد السلام رضي الله عنه

٤٩:- كان النبي صلى الله علية وسلم إذا صلى سمع لجوفه أزيزُ كأزيز المرجل من :

أ- الذكر ب- البكاء ج- الحرارة د- الخوف

٥٠:- حرم الإسلام الخصاء ، لأنه سلوك من شأنه أن :

أ- يدفع الإنسان نحو الظلم ب- يثير الإنسان ج- يمنع استمرار التناسل د- جميعها صحيح

تمت الأسئلة والله الموفق .. أختكم دلال المغربي